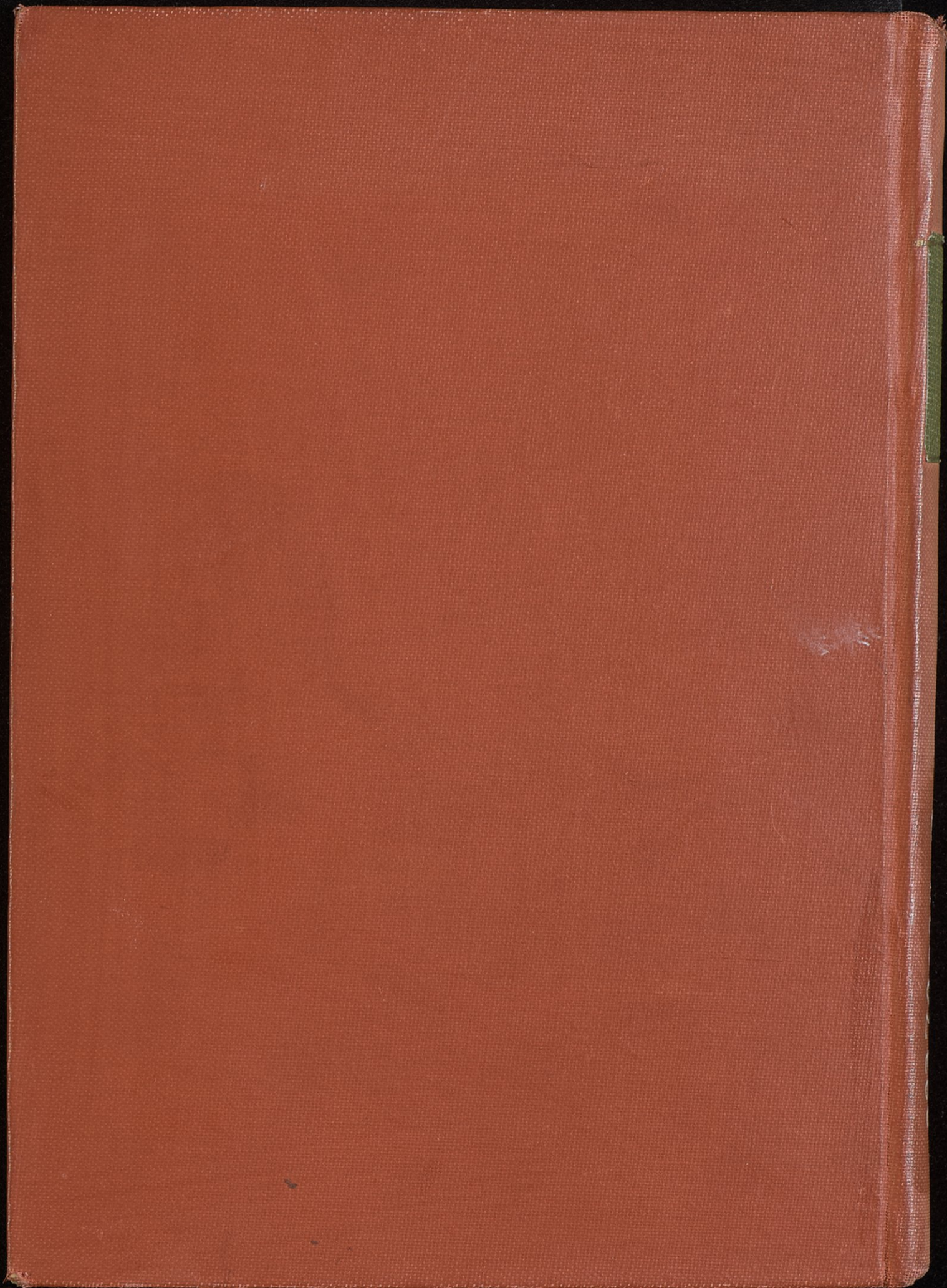
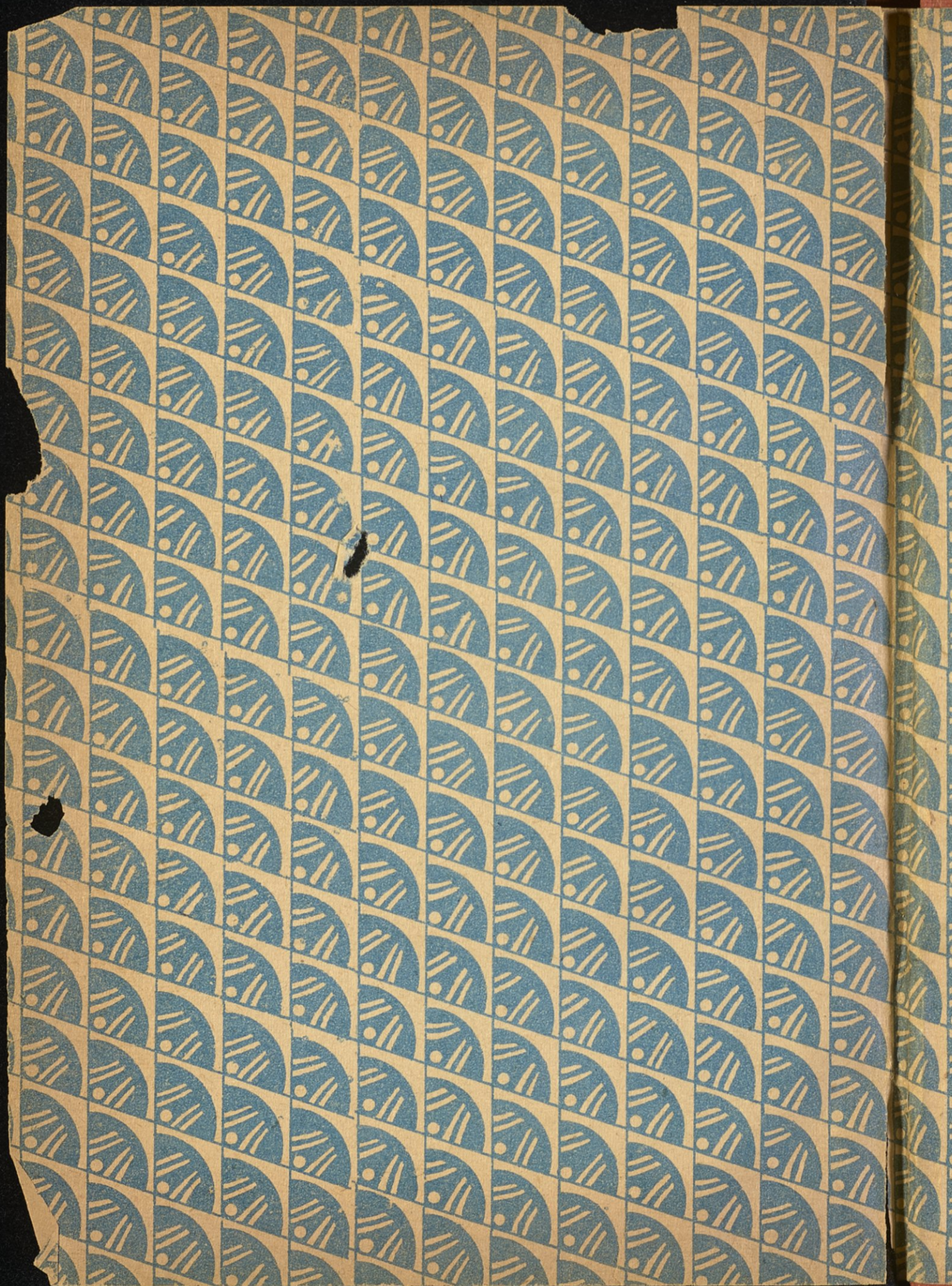




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





1342

عباس محمود العقاد

أبو الشهداد

الحسين بن علي

عُنِيَتْ بِطَرْعِهِ وَنَشَرَتْ مَكْتَبَةُ سَعْدِ مِصْرَ بِالْقَاهِرَةِ

تليفون ٤١٤٥٥

مطبعة سعد مصر بالقاهرة

893.7Ag 26
O

(حقوق إعادة الطبع محفوظة للمؤلف)

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

مراجعات با نخبستان

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل
أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله بالمنفعة والغنمة
والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ،
ولكنهما إذا اصطدما — ولا سيما في الأعمال الكبيرة —
لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا
للأريحية حتى يجبَّ المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجب
الأريحية ويخفيها . أو كذلك يتراءيان

وأصحاب المطالب الكبرى في التاريخ يعتمدون على هذا
المزاج كما يعتمدون على ذاك . فمنهم من يتوسل إلى الناس
بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ،
ومنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من طموح إلى النبل
والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظام .
ولكل منهما سبيله إلى النفوس وأمله في النجاح على
حسب الأوقات والبيئات

إلا أن الأريحية أخذت من المنفعة بسنة من سنن الخلق
التي لا تتبدل مع الأوقات والبيئات

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد
أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت
للأمة كلها أو للنوع الانساني كله . ومن ثم يكتب لها
الدوام إذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك
ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف
ما نقول ، لأن المريض على منفعته يباغها ويمضي قدماً اليها ،
فينال المنفعة التي لا ينالها صاحب الأريحية لأنه يتركها إذا
اصطدمت بما هو أجل منها

وهذا صحيح مشهود لا مرأ فيه

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحاً
إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فإذا
قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت فغزى ذلك
بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم .

ومن هنا يصح أن يقال إن الأريحية أبقى وأنجح إذا هي
اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر
مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين
أم حساب النفعيين

وأصحاب الأريحية إذن أبعد نظراً من دهاة الطامعين
والنهم-أزين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على
حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم - شعروا أو
لم يشعروا - بعيدو النظر إلى عواقب الأمور ، وإن خيل إلى
أناس أنهم طائشون متهمجون

أما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو
على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف
سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير .
فالذين يحنحون بمزاجهم إلى المنفعة يفهمون أعذار المتفعين
وينكرون ملامتهم على الناقلين

والذين يجنحون بمزاجهم إلى الأريحية يفهمون دوافع النخوة
ويحسبونها عذراً لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق .
إلا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :
الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له
ولا حكمة فيه

وان العطف على جانب الأريحية واجبٌ يخشى على الناس
من تركه وإهماله ، بل هو مناقض لصميم الفطرة التي من
أجلها فطر الناس على الإعجاب بكل ما يستحق الإعجاب
فليس يخشى على الناس يوماً أن ينسوا منافعهم ويقصروا
في خدمة أنفسهم سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا
عنها ساخرين منكربين

ولكنهم يخسرون الأريحية إذا فقدوها وفقدوا الإعجاب
بها والتطلع إليها ، وهي التي خلقت ليعجب بها الناس .
لأن حرص الإنسان على منفعته لا يغنيهم في حياتهم العامة
أو في حياتهم الباقية . أما الأريحية التي يتجاوز بها الإنسان

نفسه في سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الأمثلة العليا
فهي الخليفة النافعة للنوع الانساني بأسره ، وإن جاز اختلافهم
في كل معنى وفي كل مثل عال .

في ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية
التي وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من
غرض واحد

ولكننا لا نحسبنا مهتدين إلى نموذج لهذا الصدام
أوضح في المبادئ وأهدى إلى النتائج وأبين عن خصائص
كل من المزاجين من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع
بين الطالبين والامويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد
الحسين بن علي ويزيد بن معاوية

قلنا في كتابنا « عبقرية الامام » ما فحواه ان الكفاح
بين علي ومعاوية لم يكن كفاحا بين رجلين أو بين عقليين
وحيلتين ، ولكنه كان على الحقيقة كفاحا بين الامامة الدينية

والدولة الدنيوية ، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب
الداعون إلى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون
إلى الامامة من حزب الإمام . ولو حاول معاوية ما حاوله
على لاخفق وما أفلح ، ولو أراد على أن يسلك غير مسلكه
لما أفاده ذلك شيئاً عند محبيه ولا عند مبغضيه

فإذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع
بنجاح معاوية إلى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز
في الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال
إن أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الامامة على سنة
الخلفاء الراشدين . لأن مطالب الامامة غير مطالب الزمان
ما من أحد قط يدعى ليزيد بن معاوية صفة من صفات
العقل والخلق لم تسكن في الحسين رضي الله عنه

وما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعاً بين
رجلين أو بين عقلين وحيلتين . وإنما هو الصراع بين
الامامة والملك الدنيوي ، أو بين الأريحية والمنفعة في جولتهما

الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه
من الفوز فيه

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار
المنافع عامة من « تقريره للنظام وحفظه للامن العام » ... فان
يزيد لم يكن له فضل قط في قيام الدولة كما قامت على عهده
وبعد عهده . وإنما كانت الدولة تماسك برغبة الراغبين في
بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد حدث بعد موت
يزيد أن بويج ابنه معاوية الثاني بالشام — وكان من الزاهدين
في الحكم — فنادى الناس إلى صلاة جامعة وقال لهم :
« أما بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر
ابن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة
مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختروا له
من أحببتم » ثم أوى إلى بيته ومضت شئون الدولة على
حالتها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوى
كعبد الله بن الزبير بالحجاز

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية...
ورأى معاوية وأعوانه في هذا أسبق من رأى الطالبين
وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيراً قبل الجهاز باختيار
يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا
ذلك قبل إزجائهم النصيح إلى يزيد غير مرة بالاقلاع عن
عيوبه وملاهيته . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة
الحسين عليه في الخطاب وأشاروا عليه أن يكتب له كتاباً
« يصغر إليه نفسه » قال : « وما عسيت أن أعيب حسيناً ؟
والله ما أرى للعيب فيه موضعاً »

وتم تعلقة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية
ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك
ما يزعمونه من غلبة معاوية على « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه
أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية .
فهذه التعلقة إن صلحت لتعميل نجاح معاوية فما هي

بصالحه لتعليل نجاح يزيد

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان - كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدونهم على ترديدها فقد الثار المزعوم وسورة العصبية المتهاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها في بداية الأمر أن معاوية لم يكن مجاهراً بطلب الخلافة ولا متعرضاً لمزاحمة أحد على البيعة ، وإنما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه . ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على ترات عثمان ، وعلموا أن الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وأن معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأي ولا هو من أهل الصلاح ولا هو ممن تتفق عليهم آراء هؤلاء ، ولكنه فتي عرييد يقضى ليله ونهاره بين الخمر والطناير ، ولا يفرغ من مجالس

النساء والندمان إلا ليهرع إلى الصيد فيقضى فيه الأسبوع
بعد الأسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال
ذلك تمهيداً لملك ولا تدريباً على حكم ولا استطلاعاً لأحوال
الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه . ثقةً بما صار إليه من
التمهيد والتوطيد وما سوف يصير

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين على ومعاوية غير
جائز في المفاضلة بين الحسين ويزيد . وإنما الموقف الحاسم
بينهما موقف الأريحية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح .
وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايته ، فانتصر
الحسين بأشرف ما في النفس الإنسانية من غيره على الحق
وكرهه للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما في النفس
الإنسانية من جشع ومرء وخنوع لصغار المتع والأهواء
أقام الحسين ليلته الأخيرة بكر بلاء وهو لا ينتظر من
حاقبته غير الموت العاجل بعد سويحات ، فأذن لأصحابه أن
يتفرقوا عنه تحت الليل إن كانوا يستحيون أن يفارقوه في

خضوء النهار . فأبوا إلا أن يموتوا معه أو يموتوا دونه ، وقال
له مسلم بن عوسجة الأسدي : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر
إلى الله في أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكرس
في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما بقي قائمه بيدي ، ولو
لم يكن معي سلاحي لقدقتهم بالحجارة دونك حتى أموت
معك » وقد بر بقسمه وبقي ومات . ودنا منه حبيب
ابن مظاهر وهو يجود بنفسه فقال له : « لولا أني أعلم أني
في أترك لاحق بك لأحببت أن توصيني حتى أحفظك بما
أنت له أهل » فقال وكان آخر ما قال : أوصيك بهذا
رحمك الله أن تموت دونه » وأوما بيده نحو الحسين

وقتل الحسين وذهب الأمل في دولته ودولة الطالبين
من بعده إلى أجل بعيد ، ولكنه كان يُشتم بالكلمة العوراء
فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر
على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها

فلما نعى الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد إلى

الصلاة الجامعة وصعد إلى المنبر وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته »

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضريع هو عبد الله بن عفيف الأزدي الذى ذهب إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين . فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه »

فما طلع عليه الصبح إلا وهو مصلوب إلى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الإنسانية نصرة الحسين .

وإلى الأغوار المردولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الإنسانية نصرة يزيد . وحسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا

يُحْزَنُونَ بِالْحَطَامِ وَهَتَكَ الْأَعْرَاضَ عَلَى غَزْوِ « الْمَدِينَةِ » النَّبَوِيَّةِ
وَاسْتِبَاحَةِ ذِمَارِهَا فَيَسْرِعُونَ إِلَى الْجَزَاءِ . . . يَسْرِعُونَ إِلَيْهِ
وَلَيْسُوا هُمْ بِكَافِرِينَ بِالنَّبِيِّ الدِّفِينِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ فَيَسْكُونُ لَهُمْ
عَذْرُ الْإِقْدَامِ عَلَى أَمْرٍ لَا يَعْتَقِدُونَ فِيهِ التَّحْرِيمَ !

بَلْ حَسِبَكَ مِنْ خِصَّةِ نَاصِرِيهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْعَدُونَ مِنْ
مُوَاجِهَةِ الْحُسَيْنِ بِالضَّرْبِ فِي كَرْبَلَاءَ لَا عِتْقَ لَهُمْ بِكَرَامَتِهِ وَحَقِّهِ،
ثُمَّ يَنْتَزِعُونَ لِبَاسَهُ وَلِبَاسَ نِسَائِهِ فَيَا انْتَزَعُوهُ مِنْ أَسْلَابٍ ! وَلَوْ
أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِدِينِهِ وَبِرِسَالَةِ جَدِّهِ - لَكَانُوا فِي شَرِّ شَرِّ
الْمَرْوَةِ أَقَلَّ خِصَّةٍ مِنْ ذَاكَ



وَتَتَقَابَلُ وَسَائِلُ النِّجَاحِ فِي الْمَزَاجِينِ كَمَا تَتَقَابَلُ الْمَقَاصِدُ
وَالْغَايَاتُ .

فَكَانَ شُعَارَ مَعَاوِيَةَ وَأَشْيَاعِهِ : « إِنَّ اللَّهَ جُنُودًا مِنْ
الْعَسَلِ » وَهُوَ يَعْنِي الْعَسَلَ الَّذِي يَدَافُ بِالسَّمِّ لِيُخْلِيَ طَرِيقَ
النِّجَاحِ مِنْ كُلِّ مُعْتَرِضٍ فِيهَا وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ .

فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي والأشتر
النخعي بهؤلاء الجنود! وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن
ابن خالد وقد كان نصيراً لمعاوية في حروب الشام... فانه مات
مسموماً على ما اشتهر من الروايات، لانه رشح للخلافة بعد
معاوية دون يزيد! وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد
فقتلوا طيب معاوية - ابن أثال - الذي اتهموه بسمه
في الدواء

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة
لقد كانوا وشيكن أن يبلغوا مقصدهم من قريب. فقد كان
هانيء بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه،
وكانت كندة كلها تطيعه وتطيعه حتى قيل إنه « إذا صرخ
لباه منهم ألف سيف ». فزاره عبيد الله بن زياد - وإلى
يزيد على السكوفة - ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله
إليه. وقيل إن هانيئاً عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب
أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده، وقيل إن الذي عرض

ذلك رجل من صحبة هانيء المقربين . فأبى مسلم ما عرضه
هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبه ذلك الوالى ، وجنوده قد تعقبوه
وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ،
وقال : « إنا أهل بيت نكره الغدر » . ولو أنه بطش
بابن زياد لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد

وليقول من شاء إن قتل ابن زياد كان صواباً راجحاً .
وإن التخرج من قتله كان خطأ فادحاً من وجهة السياسة
أو من وجهة الأخلاق ، فالذى لا يُشك فيه أنه إن كان
صواباً فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وإن كان خطأ
فهو الخطأ الصعب الذى لا يستطيعه إلا القليلون

كذلك يقول من يقول إن الأريحية التى سمت إليها
طبائع أنصار الحسين إنما هى أريحية الإيمان الذى يعتقد
صاحبه أنه يموت فى نصره الحسين فيذهب لساعته إلى جنات
النعيم ، فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها

باعث الإنسان إلى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن
عقيدة وإيمان وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى
الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعاً أو كرهاً
في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون
جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها
أنصار الحسين ؟ انهم لم يطلبوها لأنهم ينقادون لغواية
أخرى ولا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة ولا تلك
القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون بها
وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولاً
اختلاف الطبائع لظهر مشغف الناس جميعاً بجنات النعيم على
نحو واحد ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية والغداء ،
ومرجع الأمر إذن في آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع
الأريحيين وطبائع النفعيين .

وكذلك يقول من يقول إن الأريحية في نفوس أنصار
الحسين كانت أريحية أفراد ، ما ودين ثبتوا معه ولم يخذلوه

إلى يومه الأخير . وينسى هؤلاء أن الارتفاع ليقاس بالقمة
الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسير في
مكان واحد كما يسير في كل مكان ، وإنما تكون الندرة هنا
أدل على جلالة المرتقى الذي تطيقه النفس الواحدة أو
الأنفس المحدودات ، لا تطيقه نفوس الأكثرين

فمدار الخلاف إذن في هذه الجولة التاريخية إنما هو
الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائناً ما كان تفسير المفسرين
للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان
على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامةً في النزاع بين الطالبين
والأمويين وخاصةً في النزاع بين الحسين ويزيد . فحياة الحسين
رضى الله عنه صفحة لا صفحة تماثلها في توضيح الفارق بين
خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح
في كفاح الحياة ، سواء نظرنا إلى الأمد البعيد أو قصرنا
النظر على الأمد القريب .

المختومة
٢ مائة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين كانت الحوادث
قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان
هذا التنافس بينهما يرجع إلى كل سبب يوجب النفرة بين
رجلين : من العصبية ، إلى التراث الموروثة ، إلى السياسة ،
إلى العاطفة الشخصية ، إلى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير
تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد على ومعاوية ...
فخرج أمية نائماً إلى الشام وبقى هاشم منفرداً بزعامة بني عبد
مناف في مكة ، فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين
والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام وهؤلاء يعتصمون بالحجاز .
ثم علا نجم « أبي سفيان بن حرب بن أمية » في الحجاز
فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب الزعامة الهاشمية . فلما
ظهرت الدعوة الحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في
طليعة المحاربين للدعوة الجديدة ، وندرت غزوة من الغزوات
لم تكن فيها لأبي سفيان أصبع ظاهرة في تأليب القبائل وجمع
الأموال ، وشاءت المصادفات زمناً من الأزمان أن يظل

وحده على زعامة قريش في حربها للنبي عليه الصلاة والسلام .
فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ودان زعماء تيم وبنى
عدى وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالإسلام ، وبقى
أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية
في منازلة النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وبلغ
من تغفل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام
أن أبا لهب عمه كان أوحداً أعمامه في الكيد له والتأليب
عليه ، وإنما جاءه هذا من بنائه بأمر جميل بنت حرب ،
أخت أبي سفيان التي وصفها القرآن الكريم بأنها حمالة الحطب...
كناية عن السعى في الشر وتأريث نار البغضاء

ثم فتحت مكة فوقف أبو سفيان ينظر إلى جيش المسلمين
ويقول للعباس بن عبد المطلب : والله يا أبا الفضل لقد أصبح
ملك ابن أخيك اليوم عظيماً . . . فلما قال العباس : إنها
النبوة ! قال : نعم إذن ! . . .

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة وكان

سلام بيته أعسر إسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجته
هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد إسلامه : « اقتلوا الخبيث
الدنس الذي لا خير فيه ... قبح من طليعة قوم . هلا قاتلتم
ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ! »

وظل أبو سفيان إلى ما بعد إسلامه زمناً يحسب غلبة
الإسلام غلبة عليه ، فنظر إلى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة
الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : ليت شعري بأى شيء غلبني !
فلم يخف على النبي عليه السلام معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه
حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له : بالله غلبتك يا أبا سفيان !
وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول :
ما أراهم يقفون دون البحر ! وقيل إنه كان في حروب الشام
يهتف كلما تقدم الروم : ايه بني الأصفر ، فاذا تراجعوا عاد
فقال : ويل لبني الأصفر !

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة
وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد

الفتح حرماً « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزداد لهم في العطاء عسى أن يذهب ما في نفوسهم من الكراهة لعلبة الإسلام . ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون إليه ولا يقاعدونه حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما بصدورهم من قبله ، فتوسل إلى النبي أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه وأن يؤمره ليقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين

ثم قبض النبي عليه السلام ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى ، فاشرب أبو سفيان إلى هذه الفتنة وخيل إليه أنه مصيبٌ بين فتوقها ثغرةً ينفذ منها إلى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الإسلامية بأسرها ... فدخل على عليٍّ والعباس يشيرهما ويعرض عليهما المعونة بما في وسعه من خيل ورجل . فنادى بهما : يا علي ! وأنت يا عباس ! ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلمها ؟ والله لو شئت

لأملانها عليه — على أبي بكر — خيلا ورجلا وآخذنها
عليه من أقطارها »

وهو ولا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فانت بنى هاشم
ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قراراً لا
طاقة له بتحويله ، ولكنه أراد خلافاً يفتح الباب لزعامة
أموية يملك بها زمام قریش والدولة العربية جمعاء

فلم يخف مقصده هذا على علي رضي الله عنه وقال له :
« لا والله ! لا أريد أن تملؤها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا
رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه وإياها » ثم أنبأه قائلاً :
« يا أبا سفيان ! إن المؤمنين قوم نصيحة بعضهم لبعض ، وإن
المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ، متخاونون وإن قربت
ديارهم وأبدانهم .. »

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمر تجري في
مجراها الذي يأخذ على المطامع سبيلها ويخيف أصحاب الفتن
أن يبرزوا بها من جحورها

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون
أما انتصار ، لأنه رأس من رؤسهم وابن عم قريب لزعماء
بيوتهم ، وأصبحت الدولة الإسلامية أموية لا يطمع في خيراتها
ولا ولاياتها إلا من كان من أمية أو من حزبها . فمروان
ابن الحكم وزير الخليفة الأكبر يصدق العطاء على الأقرباء
ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان وإلى
الشام يجتذب إليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون
وينحشى منهم الخلف

فلما قتل عثمان رضى الله عنه كان المنتفعون بمناصب
الدولة وأموالها جميعاً من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ،
ومال السلطان إلى جانب أمية على كل جانب آخر من
القرشيين وغير القرشيين

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعاً معروف النهاية من
مطامع البداية ، فقتل على بن أبي طالب غيلةً وخلصت الخلافة
لمعاوية بن أبي سفيان

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدهم ومحالهم ، وكان رجلا سكيناً يكره المنازعة ويجنح إلى العزلة ، فصالح معاوية على شروط وفي له بالمعجل منها والتوى عليه بمؤجلها ، وزاد على ذلك كما تواتر في شتى الروايات أنه أغرى امرأته - جعدة بنت الأشعث - بسمه ووعدا أن يزوجها يزيدا ويعطيها مائة ألف درهم . فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج

وقد أوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده إلا أن تخاف فتنة . فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى فقام مروان بن الحكم وجمع بني أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه ، فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن يدفن إلى جوار جده ، فقبل له : « إن أخاك قال » إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة . وهذه فتنة « فسكت على مضض .

وقد كان معاوية ولا ريب ينوى أن يجعلها دولة أموية
متعاقبة في ذريته من بعده منذ تصدى للخلافة وخلا له
المجال من أقوى منافسيه ، إلا أنه كان يتردد ويتسكتم ولا
يفضي بنيتيه إلى أقرب المقربين إليه . ثم كبرت سنه
وخاف أن يُعجل عن قصده ، فهد لبينة ابنه يزيد
بعض التمهيد وتوسل إلى ذلك بما طاب له من وسيلة ،
فلما أهل الشام وكتب بيعته إلى الآفاق ، ثم همهم أمر
الحجاز فكتب إلى مروان بن الحُكم عامله أن يجمع من
قبله لأخذ البينة منهم ليزيد . فأبى مروان وأغرى رؤس
قريش بالإباء ، لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد معاوية
ويحسبه أقدر عليها من يزيد لما اشتهر به من نقص وعيب ،
فعرّله معاوية وولى سعيد بن العاص مكانه فلم يجبه أحد
إلى ما أراد . فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وعبد الله
ابن الزبير وعبد الله بن جعفر والحسين بن علي ، وأمر عامله
سعيداً أن يوصل كتبه إليهم ويبيعث إليه بجواباتها ، وقال

لسعيد « فهمت ماذا كرت من إبطاء الناس وقد كتبت إلى
رؤسائهم كتباً فسلمها إليهم ، ولتشدد عزيمتك وتحسن
فيتك ، وعليك بالرفق وانظر حسيناً خاصة فلا يفاله منك
مكروه ، فإن له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسالم ..
وهو ليث عرين ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه »
فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة في إقناع وجهاء
الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية إلى مكة
ومعه الجند وحقائب الأموال . ودعا بأولئك النفر فقال لهم :
قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم . يزيد أخوكم وابن
عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم
تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه » فأجابه عبد الله
ابن الزبير وخيره بين أن يمنع كما صنع رسول الله إذ لم
يستخلف أحداً أو كما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل ليس
من بني أبيه ، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى في
سنة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه . فقال

معاوية مغضبا : هل عندك غير هذا ؟ قال : لا . والتفت إلى
الآخرين يسألهم قائلا : فأنتم ؟ فوافقوا ابن الزبير . فقال
متوعدا : أعذر من أنذر ! إني كنت أخطب فيكم فيقوم
إلى القائم منكم فيكذبني على رؤس الناس فأحمل ذلك
وأصفيح ، وإني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحكم
كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها
السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ! »

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين
مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « إن ذهب رجل
منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما »
ثم خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر فحمد الله وأثنى
عليه وقال : هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم
أمر دونهم ولا يقضى إلا على مشورتهم ، وإنهم قد رضوا
وبايعوا ليزيد . فبايعوه على اسم الله »

فبايع الناس

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز
ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه البيعة لا تجوز
ولا تؤمن عقباها ، فأوصى ابنه « أنه لا يخاف إلا هؤلاء
من قریش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ،
وعبد الله بن الزبير . . قال : فأما عبد الله بن عمر فرجل
قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما
الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ،
فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحما ماسة
وحقا عظيما .

وأما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإذا أمكنته فرصة
وثب ، فإن هو فعلها فقدرت عليه فقطعه إربا إربا إلا أن
يلتمس منك صلحا . فإن فعل فاقبل واحقن دماء قومك
ما استطعت »

وآل الأمر على هذا النحو إلى يزيد في سنة سنيين
للهجرة وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ولكنه

دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين
والنصحاء أمثال المغيرة وزياد وعمرو بن العاص وغيرهم من
القروم الذين كانوا حول أبيه ، فتهيب ما هو مقدم عليه
وكتب إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان « أن
خذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة
أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام »

فبعث الوليد إلى مروان بن الحكم يستشيريه ، وكان
مروان يريد الخلافة لنفسه ولكنه علم بعد موت معاوية
وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بني أمية فان خرج منهم
فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين
ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطنها السعى إلى الخلاص
من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة إلى
هؤلاء نفر فتدعوهم إلى البيعة . أما ابن عمر فلا أراه يرى
القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فان
بايعا وإلا فاضرب أعناقهما . . . »

وضربُ عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من
أعظم المنافسين ليزيد ، ثم الخلاص من يزيد نفسه باثارة
النفوس وإيغار الصدور عليه !

وقد ذهب رسول الوليد إلى الحسين وابن الزبير فوجدهما
في المسجد ، فعلم الحسين مايراد منه وجمع طائفةً من مواليه
يحملون السلاح وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد : « إن
دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقحموا على بأجمعكم وإلا
فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم »

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فإن
مثلي لا يعطى بيعته سراً ، ولا أراك تقنع بها مني سراً »
قال الوليد : أجل ! قال الحسين : فإذا خرجت إلى الناس
فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحداً »
ثم انصرف ومروان غاضب صامت لا يتكلم ، وما هو إلا
أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : عصيتني والله !
لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتل بينكم وبينه »

فأنكر عليه الوليد لجأته وقال له : « أتشير على بقتل
الحسين ؟ والله ان الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة
خفيف الميزان عند الله »

وهكذا انتهت المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم إلى
مفترق طريق لا سبيل فيه إلى توفيق ، ولم تنقطع قط
سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام فى عهد
النبوة ، وفى عهد الصديق والفاروق

وكفى بالاسلام فضلا فى هذا المجال أنه غلب العصبية
بالعقيدة فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفاتها !
ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة ،
وكثيرا ما يفتت المكبوح من عنانه وإن طالت به
الرياضة والانقياد

فاتفق كثيراً فى مساجلات شتى بين كبار الصحابة
أن بدرت إلى اللسان بوادر العصبية والنبي عليه السلام

حاضر . فلما أشار عمر بقتل أبي سفيان على خلاف رأى
العباس فى استبقائه وتآلفه قال العباس : « مهلا يا عمر !
فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل
هذا : . . . ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف »
ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفتريين
على السيدة عائشة ثار به سعد بن عبادة وصاح به : —
« كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت
هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو
كانوا من قومك — الأوس — ما قلت هذا . . . »
وقد مات الفاروق وهو يوصى علياً فيقول : « اتق
الله يا على ان وليت شيئاً ، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب
المسلمين » . . . ثم يلتفت إلى عثمان فيقول له : اتق الله
ان وليت شيئاً فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين »
ومن عجائب الحيل التى تحاول بها الغرائز الانسانية
ان تبقى وجودها وتمضى لطبيعتها أن بنى أمية انتفعوا من

حرب الاسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم فجعلوها حجة على
بنى هاشم ان النبوة لا تحصر الامر فيهم وأن الانبياء
لا يورثون... وإذا نهضت هذه الحجة على بنى هاشم فبنو
أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف

ولقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات
فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان
يلطف القول إلى أبناء على ويواليهم بالهدايا والمجاملات ،
ولكنه كان مضطراً إلى مجاملة آل على ومضطراً إلى
تنقّص على والغض من دعواه . فكان بذلك مضطراً إلى
النقيضين في آن

انه ملك وباع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح
والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور . فكان الناس يفضلون
عليّاً عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقراءة النبي ولا بالسابقة
إلى الاسلام ولا بالعراقة في قريش . فتجنب النسب والسابقة
وعهد إلى شخص على في منازعات الخلافة فآهمه بتفرقة

الكلمة بين المسلمين وأمر بلعنه على المنابر عسى أن
يضعف من تلك المكانة التي هو مغلوب بها ويستبقى
الدولة التي هو بها غالب ، ولج في ذلك حتى قتل أناساً
لم يطيعوه في لعن على واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن
على في شرطه الذي أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه .. .
وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعور
من حيث حارب علياً في مقام السمعة والشعور
وان مجاملة كهذه التي تحيي الرجل وتغض من قدر
أبيه هي أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلاً عن خصمين
متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال إلى مفترق
الطريق

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفي
قصاص التاريخ ، فأضاف إليها أناس من ثقافتهم قصة منافسة
أخرى هي وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين ، وهي

قصة زواج الحسين رضى الله عنه بزینب بنت اسحق التي
كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياء
وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها
بالجمال ، وكانت زوجة لعبد الله بن سلام القرشي والى العراق
من قبل معاوية

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله حتى استخرجه
منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته ، فلما
علم أبوه سر مرضه أرسل في طلب عبد الله بن سلام
واستدعى إليه أبا هريرة وأبا الدرداء فقال لهما إن له ابنة
يريد زواجها ولم يرض لها حليلا غير ابن سلام ، لدينه وفضله
وشرفه ورغبة معاوية في تكريمه وتقريبه . فخدع ابن سلام
بما بلغه وفتح معاوية في خطبة ابنته ، فوكل معاوية الأمر إلى
أبي هريرة ليبلغها ويستمع جوابها . فكان جوابها المتفق عليه
بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه ولكنها تخشى
الضرر وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله . فطلق ابن

سلام زوجته واستنجز معاوية وعده ، فاذا هو يلويه به ويقول
بلسان ابنته انها توجس من رجل يطلق زوجته وهي ابنة
عمه واجمل نساء عصره .. فمثل هذا لا يؤمن على كرائم
النساء

وقيل ان الحسين سمع بهذه المكيدة فسأل أبا هريرة
ان يذكره عند زينب خاطباً . . . فصعد أبو هريرة بأمره وقال
لزينب : إنك لا تعلمين طلاباً خيراً من عبد الله بن سلام
قالت : من ؟ قال : يزيد بن معاوية والحسين بن علي
وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال
واستشارته في اختيار أيهما فقال : لا اختار فم احد
على فم قبلة رسول الله . تضعين شفتيك في موضع شفتيه
فقالت : لا أختار على الحسين بن علي أحداً وهو
ريحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة . فقال معاوية متغيظاً
انعمي أم خالد رب ساع لقاعد
ولم يلبث الحسين ان ردها الى زوجها قائلاً : ما ادخلتها

في بيتي رتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن
أردت إحلالها لبعليها .

فان صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات
فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ،
وكان قيام يزيد على الخلافة يومَ فصل في هذه الخصومة
لا يقبل الأرجاء ، وكان بينهما كما اسلفنا مفترق طريق



المختصر في علم

نخلص المقریزی المنافسة التي بين الهاشميين والامويين

في يمين فقال :

عبد شمس قد أضرمت لبنى ها

شم حرباً يشيب منها الوليد

فابن حرب للمصطفى ، وابن هند

لعلى ، ولالحسين يزيد

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضاً موجزاً لهذه

المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيها ،

ولكننا نجتزئ هنا بأبلغ ما قيل في هذه المقابلة على لسان

حسان بن ثابت حيث قال لأبي سفيان بن حرب

ألا أبلغ أبا سفيان عني

فأنت مجوف نخب هواء

هجوت محمداً فأجبت عنه

وعند الله في ذاك الجزاء

أنه جوه ولست له بكفو

فشركا خيرا الجزاء

فقد كان حسان مفحما ملزماً في الشرط الأخير من
هذه الآيات حين ترك الحكم في خير الرجلين وشرهما لمن
يشاء ومنهم المخاطب بذلك الهجاء . فقال شطره هذا وهو
على ثقة المتحدى الجازم بصدقه وتصديق الناس إياه . فلا
أبو سفيان ولا أحد من شيعته ومادحيه والهاجين للنبي
عليه السلام يجهل من خير الرجلين ومن شرهما وإن لجت
بهم الخصومة أيما لجاج

وفي وسع قائل أن يتمثل بهذه الشطرة في الخصومة
بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية فيبلغ في هذا المقام
مبالغة من الإفحام والالزام . فأياً كان الميزان الذي يوزن
به كل من الرجلين فلا مراء البتة في خير الرجلين وشر
الرجلين ، وما نظن أن يزيدياً يجيب في مقام التحدى
فيقول بلسانه « نعم . شرهما خيرا الجزاء » إلا وهو يعلم

بقلبه أن المثلوب هنا هو يزيد

فما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب كما قد فاز يزيد
ابن معاوية في حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان
أحدهما أوضح حقاً وأظهر فضلاً من الحسين في خصومته
ليزيد بن معاوية

والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوهها
موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداية الخلاف بين
الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء
سبعة قرون . فلم يظهر في هذه القرون أموى قح إلا
ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة في القبيلة بأسرها ، ولم
يظهر في خلالها هاشمى قح إلا رأيت فيه ملامح من تلك
الخصال التي بلغت مثلها الأعلى في محمد بن عبد الله
عليه السلام

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع إلى
عبد مناف ثم إلى قريش في أصلها الأصيل

ولكن الأسرتين تختلفان في الأخلاق والأمزجة وإن
اتحدتا في الأرومة ، فبنو هاشم في الأغلب الأعم مثاليون
أريحيون ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في
الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولا سيما الأصلاء منهم في
عبد شمس من الآباء والأمهات

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير ...
فإن الأخوين في البيت الواحد قد يختلفان في الأخلاق
والأعمال كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعاً
لاختلاف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على ذلك
النحو الذي يأذن أحياناً باختلاف الألوان والملامح في نسل
واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة ،
ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية
كانا يختلفان حتى في الصورة والقامة والملامح
وفي نسل أمية شبهة نشير إليها ولا نزيد ، فهي
محل الإشارة والمراجعة في هذا المقام

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : من رأيت
من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم
وأمية بن عبد شمس . فقال : صفهما لي . فقال : كان
عبد المطلب أبيض مديد القامة حسن الوجه في جبينه نور
النبوة وعز الملك يطيف به عشرة من بنيهم كأنهم أسد
غاب . قال : فصف أمية . قال : رأيتها شيخاً قصيراً
نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان . فقال معاوية :
مه ! ذاك ابنه أبو عمرو . فقال دغفل : ذلك شيء
قلتموه بعد وأحدثتموه ، وأما الذي عرفت فهو الذي
أخبرتكم به

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب المثالب أن أبا عمرو
ابن أمية كان عبداً لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل
أبو الفرج الاصبهاني — وهو من الأمويين — ما تقدم
فلم يعرض له بتفنيد

ووضح الفرق بين بني هاشم وبني أمية في الخلائق

والمناقب في الجاهلية قبل الاسلام . فكان الهاشميون سراعاً
إلى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه ولم يكن بنو أمية
كذلك . فتحلفوا عن حلف الفضول الذي نهض به
بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من
رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه
وليأخذن أنفسهم بالتأسي في المعاش والتسامح في المال
وليمنعن القوى من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب »
واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة
من رجل زيدي ولواه بثمانها ، فنصروا الرجل الغريب
على القرشي وأعطوه حقه

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية إلى نفيل ابن
عدي قضى لعبد المطلب وحرب بن أمية إلى نفيل ابن

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام
يشير إلى فيل ابرهة الذي أغار به على مكة . وقال
عن أمية انه « معاهر » لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد

ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بنى زهرة ،
وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والنبوة .
فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم
يعرف سيد من سادات الجاهلية صنع قط هذا الصنيع
وندع اختلاف الطبائع ومغامر النسب ثم ننظر في
اختلاف النشأة والعادة — مع اختلاف الخلقة الجسدية —
فترى أنهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء
عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال

فقد كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ،
وبنو عبد شمس يعملون في التجارة أو الرئاسة السياسية
وهما ما هما في الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطفيف
والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق
الصراحة وأخلاق المساومة وبين وسائل الإيمان ووسائل
الحيلة على النجاح

ويتفق كثيرا في الكهنات الوثنية أن يتصف رؤساء

الآديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار
والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون
الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة ومظاهر العبادة ،
ويتخذونها صناعة يروجونها لمنفعتهم أو لما يقدرّون فيها من
منفعة أولئك الأغرار والجهلاء

واكن أبناء هاشم لم يكونوا من طراز أولئك
الكهان المشعوذين ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على
خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين . بل كانوا
يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من إيمانهم بدينهم أن
عبد المطلب — جد النبي عليه السلام — أوشك أن يذبح
ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش عشر بنين
لينحرن أحدهم عند الكعبة » ولم يتحلل من نذره حتى
استوثق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات
والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين
أصحابها بما يدعون إليه ، فان لم تكن في بني هاشم موروثه

من معدن أصيل في الأسرة فهي أشبه بسمت الرئاسة
الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلاً بعد جيل ،
وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكناً بعد ظهور النبوة
فيها ، وأن يتلقاها بالوراثاة والقذوة أسباط النبي وأقرب
الناس إليه

وانك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبين أبناء على
والزهراء مائة سنة ومائتي سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك
رجل من رجالها فيخيل إليك أن هذا الزمن الطويل لم
يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات ، كأنما
هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ،
ولا تلبث أن تهتف عجباً : إن هذه لصفات علوية لا شك
فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويحجب من يكلمه
وتراه يعمل ويجزى من عمل له فلا تخطيء في كلامه ولا في
عمله تلك الشجاعة والصراحة ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت
ولا تلك اللوازم التي اشتهر بها علي وآله وتجمعها في كلمتين

اثنتين تدلان عليها أوفى دلالة وهما « الفروسية الرياضية »
طبع صريح ولسان فصيح ومتانة في الأسر يستوى
فيها الخلق والخلق ، ونخوة لا تبالى ما يفوتها من النفع
إذا هي استقامت على سنة المروءة والاباء

فمن يحيى بن عمر إلى علي بن أبي طالب خمسة أو ستة
أجيال ؛ ولكن يحيى بن عمر يوصف لك فاذا هو صورة
مصغرة من صور علي بن أبي طالب على نحو من الانحاء ،
فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموي أبو الفرج
الاصمعي أنه كان « رجلاً فارساً شجاعاً شديد البدن
مجتمع القلب بعيداً عن رهق الشباب وما يعاب به مثله »
ومما روى عنه « أنه كان مقياً ببغداد وكان له عمود
حديد ثقيل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد
أو الأمة من حشمه فيلوى العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن
يحلّه عنه حتى يحلّه يحيى رضي الله عنه »

ولما ضايقه الأمراء وضمنوا عليه بجزائته في بيت المال

كان يجوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « إن عشنا
أكلنا »

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد فأقبلت عليهم الجموع
المحشودة لقتاله وأسرع اليه بعض الأعراب فصاح به : —
« أيها الرجل أنت مخدوع . هذه الخيل قد أقبلت ... »
فوثب إلى متن فرسه فجال به وحمل على قائد التوم فضربه
ضربة بسيفه على وجهه فولى منهزماً وتبعه أصحابه ، فجلس
معههم ساعة وهو لا يبالي ما يكون

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك اتهم أناس
صاحبه الهیضم العجلى أنه كان مدسوساً عليه وأنه غرر به
لينكص عنه عند احتدام القتال ، فأقسم الرجل بالطلاق
أنه لم يكن له في الهزيمة صنع مدبر . . قال : « وإنما
كان يحىي يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل
وحمل مرة كما كان يفعل فبصرت عيني به وقد صرع في
وسط عسكرهم ، فلما رأيته قد قتل انصرفت بأصحابي

ويحيي الشهيد هذا هو الذي قال ابن الرومي جيميته المشهورة
في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم

— غداة اتقى الجمعان والخليل تمعج (١) —

لأعطى يد العاني أوارتد هاربا

كما أرتد بالقاع الظليم (٢) المهجج

ولكنه ما زال يغشى بنحره

شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج

وحاشي له من تلكم ، غير أنه

أبى خطة الأمر الذي هو أمتعج

وأين به عن ذاك ؟ لا أين — إنه

إليه بعرقه الزككين محرج

كأنى به كالليث يحمى عرينه

وأشباهه لا يزدهيه المهجج

(١) معج الفرس أسرع سيره في سهولة (٢) ذكر النعام

كدأب على في المواطن قبله

— أبي حسن — والغصن من حيث يخرج

كأنى أراه إذ هوى عن جواده

وعفر بالترب الجبين المشجع

فحب به جسما إلى الأرض إذ هوى

وحب به روحا إلى الله تعرج

وقد أصاب ابن الرومي الوصف والتعليل ، فما كان كل
من يحيى ولا أسلافه من قبله إلا علياً صغيراً يتأسى بعلى
الكبير ، أو غصناً زاكياً يخرج من دوحته الكبير ،
والغصن من حيث يخرج كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع
في أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة
الواضحة بعد ستة أجيال . فنحن نرى يحيى بن عمر بعد
هذه الأجيال — وهو بعموده الحديدى وجرأته التى لا
تنزعزع ويقينه الذى لا يلوى به الاغراء والوعيد — كأنما
هو نسخة أخرى من جده الكبير الذى يحمل باب خير

وقد أعيا حمله الرجال وينهد لعمر بن ود وقد تهيبه مئات
الابطال ، ويتوسط الصفوف حاسراً وقد برزوا له بشكة
القتال ودروع النزال

ولم يكن لبني أمية ، على نقيض هذا ، نصيب ملحوظ من
الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في
أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما
يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها . بل لعله كان من
شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي إلى صفات تقابل تلك
الصفات ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا . .
فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التي
دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس
المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤسهم بمحاسن هذه
الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم
والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة
والجشع والاقبال على الترف ومناعم الحياة

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل
الأسرتين كما تقابلا في كثير من الخلائق والحظوظ ،
ولكنهما تفاوتتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتتا في غير ذلك
من وجوه الخلاف بينهما . فكان الحسين بن علي نموذجاً
لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجاً
لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب
أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة إلا القليل

وليس بنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من
الرجلين وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزئ
منهما بما يملأ الكفتين في هذا الميزان ، وهو ميزان
الآريحية والنفعية في حادث كبير من حوادث التاريخ العربي
يندر نظيره في جلاء الموازنة بين هاتين الكفتين في جميع
التواريخ

وإذا كانت المعركة كلها هي معركة الآريحية والنفعية

فالمزية الأولى التي ينبغي توكيدها هنا للحسين بن علي رضي الله عنه هي مزية نسبه الشريف ومكانه في محبة النبي عليه السلام.

ان المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربياً مسلماً أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمداً وغيره من الأنبياء ، ولكنه يخطئ دلالة الحوادث التاريخية إذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في نفوسهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكننا المهم أن أتباع يزيد كانوا مؤمنين بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين

فلولا هذه المزية في الحسين لما وضع الصراع بين
الاريجية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا
وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك
الدلالة التي كشفت النفس الانسانية في جانبيين منها قويين ،
يتنازعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد ، وسيظلان
على نزاعهما هذا إلى زمان بعيد .

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب إنسان
إلى قلوب المسلمين ، وأجدر إنسان أن تنعطف إليه تلك
القلوب

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه وسمى من قبله
أخاه . قال علي رضي الله عنه : لما ولد الحسن سمّيته
حرباً فجاء رسول الله فقال : أروني ابني ما سمّيته ؟
قلت : حرب ! قال بل هو حسن . فلما ولد الحسين
سمّيته حرباً فجاء رسول الله فقال : أروني ابني ما سمّيته ؟
قلت : حرب ! فقال : بل هو حسين

وذهب إلى الحسين وإخوته كل ما في فؤاد النبي عليه
السلام من محبة البنين وهو مشوق الفؤاد إلى الذرية من
نسله . فكان عليه السلام لا يطيق أذاها ولا يحب أن
يستمع إلى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة ما يبكي
الأطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يوماً فمر على
بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي ، فقال : ألم تعلمي أن بكاءه
يؤذيني ؟

وكان يقول لها : ادعي إلى ابني ، فيشمهما ويضمهما
إليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين . وروى
أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين فيرى
الصبى حمرة لسانه فيمض إليه ، وكان عيينة بن بدر شهده
في بعض هذه المجالس فقال متعجباً : يصنع هذا بهذا ؟
فوالله إن لي الولد وما قبلته قط ! قال عليه السلام : —
من لا يرحم لا يرحم !

وخرج ليلة في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً

أو حسيناً ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة .
قال راوى الحديث : فرفعت رأسى فاذا الصبي على ظهر
رسول الله وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودى ، فلما قضى
الصلاة قيل يا رسول الله . إنك سجدت بين ظهري صلاتك
سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى
إليك . قال : كل ذلك لم يكن . ولكن ابنى ارتحلنى
فكرهت أن أعجله

وقام عليه السلام يخطب المسلمين فجاء الحسن والحسين
وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل عليه
السلام من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :
« صدق الله ! إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى
هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي
ورفعتهما »

ولا يوجد مسلم فى العصر القديم أو العصر الحديث
يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ثم يصغر عنده حساب

هذا الحنان الذي غمر به قلبه الكريم سبطيه وأحب الناس إليه . فبهذا الحنان النبوي قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخصوس الرمزية التي تتخذ منها الأمم والملل عنواناً للحب أو عنواناً للفخر أو عنواناً للألم والفداء فإذا بها محبوب كل فرد ومفخرته وموضع عطفه وإشفاقه كأنما تمت إليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان مع الزمن مبلغاً من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات . فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسى بن مريم » وقال آخرون : « رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى » واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد فكان يأتيه فيلقمه إبهامه فيمصه ويجعل الله في إبهام رسوله رزقاً يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يوماً وليلة ، فأثبت الله سبحانه لحمه من لحم رسول الله .. »

وروى عنه غير ذلك كثير من الأساطير التي تحيط
بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التي تعزها وتغليها فتلتبس
لها مولداً غير المولد المألوف ، ونشأة غير النشأة المعهودة ؛
وتلحقها أو يوشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات
ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفوفاً لتلك الصورة
الرمزية التي فسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى
منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة

فكان مليء العين والقلب من خلق وخلق وفي أدب
وسيرة . وكانت فيه مشابه من جده وأبيه . إلا أنه كان
في شدته أقرب إلى أبيه . قال علي رضي الله عنه مشيراً إلى
الحسن « ان ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، وأشبه أهلي
أبي الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على
الحسن الحلم والاناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي »
وقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون
العلم والأدب والفروسية ، وإليه يرفع كثير من المتصوفة

وحكماء الدين نهوصهم التي يعولون عليها ويردونها إلى على
ابن أبي طالب رضى الله عنه

وقد أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن
بيان وغنة صوت وجمال إيماء . ومن كلامه المرتجل قوله
في توديع أبي ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن
أخرجه معاوية من الشام : « يا عماء ! إن الله قادر أن
يغير ما قد ترى . والله كل يوم في شأن : وقد منعك
القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم
إلى ما منعتهم ؛ فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من
الجشع والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وان الجشع
لا يقدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلا »

وكان يومئذ في نحو الثلاثين من عمره فكانما أودع
هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا إلى أن
فارقها في مصرع كربلاء

وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة

وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الآيات :
اغْنِ عَنِ الْمَخْلُوقِ بِالْمَخْلُوقِ * تَغْنِ عَنِ الْكَاذِبِ وَالصَّادِقِ
وَاسْتَزِقِ الرَّحْمَنَ مِنْ فَضْلِهِ * فَلَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ رَازِقِ
مَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّاسَ يَغْنُونَهُ * فَلَيْسَ بِالرَّحْمَنِ بِالْوَائِقِ
وَمِنْهُ هَذَانِ الْبَيْتَانِ فِي زَوْجَتِهِ وَابْنَتِهِ

لِعَمْرِكَ أَنِّي لِأَحَبِّ دَارًا * تَكُونُ بِهَا سَكِينَةٌ وَالرَّبَابُ
أَحَبُّهُمَا وَأَبْذَلُ كُلِّ مَالٍ * وَلَيْسَ لِعَاتِبٍ عِنْدِي عِتَابُ
وَهُمَا سَوَاءٌ صَحَّتْ نَسَبُهُمَا إِلَيْهِ أَوْ لَمْ تَصَحَّ مَعْبِرَانِ عَنْ
خَلْقِهِ فِي بَيْتِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَشَدِّ الْآبَاءِ حُدُبًا
عَلَى الْإِبْنَاءِ وَأَشَدِّ الْأَزْوَاجِ عَطْفًا عَلَى النِّسَاءِ ، وَمِنْ وَفَاءِ
زَوْجَاتِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ أَنَّ الرَّبَابَ هَذِهِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْبَيْتَيْنِ
السَّابِقَيْنِ خَطْبُهَا أَشْرَافُ قُرَيْشٍ بَعْدَ مَقْتَلِهِ فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ
لَأَتَّخِذَ حِمَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ . وَبَقِيَتْ سَنَةً لَا يَظْلُمُهَا سَقْفٌ
حَتَّى فَنِيَتْ وَمَاتَتْ وَهِيَ لَا تَفْتَرُ عَنْ بَكَائِهِ وَالْحُزْنِ عَلَيْهِ
وَقَدْ سَنَّ الْحُسَيْنُ لِمَنْ بَعْدَهُ سَنَةً فِي آدَابِ الْأَسْرَةِ تَلِيْقُ

بالبيت الذى نشأ فيه ووكل إليه أن يرعى له حقه ويوجب
على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته
ورجحانه على أخيه الحسن فى مناقب كثيرة ومآثر عدة كان
يستمع إلى رأى الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة .

فلما هم الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من
الحسين ، فلم يوافقهم وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن
وقال له : « والله لقد هممت أن أسجنك فى بيت وأطين
عليك بابه حتى أقضى بشأنى هذا وأفرغ منه ثم أخرجك »

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت
ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة أنه ركب
دين فساومه معاوية بمائتى ألف دينار أو بمبلغ جسيم من
المال على عين « أبى نيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته إلى
بعض ما عرض عليه — لأن أباه تصدق بمائتها لفقراء
المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار فى رعاية أسرته ورعاية

الناس عامة ، فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة
فوصفه لرجل من قريش ذاهب إلى المدينة فقال : « إذا
دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على
رؤسهم الطير فلك حلقة أبي عبد الله مؤتزرا إلى أنصاف
ساقيه »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بمخطئة وهو
يعلمهم ويبصرهم بشون دينهم ، إلا أن تكون مكابرة أو
لجاجة فله في جواب ذلك اشبهاء تلك القوارص التي
كانت تؤثر عن أبيه

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يمتثل على تصحيح
الخطأ حيلة لا غضاظة فيها على المخطئين

فمن آدابة وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا أعرايياً يخفف
الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلظه وقالاه : « نحن
شبابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة
منا ، فنتوضأ ونصلي عندك ، فان كان عندنا قصور تعلمنا »

فتنبه الشيخ إلى غلظه دون أن يأنف من تنبيههما إليه .
ومر يوماً بمساكين يأكلون فدعوه إلى الطعام على عادة العرب
فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : قد أجبتكم فأجيبيوني ودعاهم
إلى الغداء في بيته

ورويت الغرائب في اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت
أمثال هذه الغرائب في امتحان قدرة أبيه عليهما السلام ...
ف قيل ان إعرابياً دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن
رضي الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه فقال لما
عرفوه به : إياه أردت . جئت لأطارحه الكلام واسأله عن
عويص العربية ، فقال له بعض جلسائه : إن كنت جئت
لهذا فابدأ بذلك الشاب ، وأوماً إلى الحسين عليه السلام ،
فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته قال : أتى جئتك من
الهرقل والجعلل والأينم والهمهم . فتبسم الحسين وقال :
« يا اعرابي ! لقد تكلمت بكلام ما يعقله إلا العالمون
فأجابه الاعرابي قائلاً يريد الاغراب : وأقول أكثر من

هذا ، فهل أنت مجيبي على قدر كلامي ؟ ثم أذن له الحسين
فأنشد أبياتاً تسعة منها :

هذا قلبي إلى اللهو وقد ودع شرخيه
فأجابه الحسين مرتجلاً بتسعة أبيات في معناها ومن
وزنها وقافيتها ، يقول منها :

فما رسم شجاني قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين في بوءاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه

إلى آخر الأبيات ... ثم فسر له ما أراد من الهرقل
وهو ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأينم
وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ،
وفي هذه الكلمات أوصاف البلاد التي جاء منها وإشارة إليها
فقال الاعرابي : ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاماً
وأدرب لساناً ولا أفصح منه منطقاً

وتلك رواية من روايات علي منوالها ، إن لم تنبئ بما

وقع فهي منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين في صباه
الباكر بالعلم والفصاحة

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة كان الشعراء يرتادونه
وبهم من الطمع في إصغائه أكبر من طمعهم في عطاءه ،
ولكنه على هذا كان يجري معهم على شريعة ذوى الأقدار
والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل
ويؤثرهم على نفسه في خصاصة الحال ، وقد لامه أخوه الحسن
في ذلك فكتب إليه « إن خير المال ما وُقي به العرض »
إلا أنه في الواقع لم يكن يعطى لوقاية العرض وكفى ،
ولكنه كان يعطى من قصده من ذوى الحاجات ولا ينجب
رجاء لمن استعان به على مروءة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الانسانية
وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة
فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه
الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين

حرضوه على خلع معاوية أن بينه وبين الرجل عهداً وعقداً
لا يجوز له نقضه حتى تمضى المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه
وجوده معاً فقال لصحبه يوماً وقد أرسل الهدايا إلى وجوه
المدينة من كسى وطيب وصلات : « إن شئتم أنبأنا كم بما
يكون من القوم . . . أما الحسن فلهه ينيل نساءه شيئاً من
الطيب وينهب ما بقى من حضره ولا ينتظر غائباً ، وأما الحسين
فبيداً بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فان بقى شيء فخر به
الجزر وسقى به اللبن . . . »

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء
من معدنه » كما قيل . وهى فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها
الآبناء بعده ، وقد شهد الحروب فى افريقية الشمالية
وطبرستان والقسطنطينية وحضر مع أبيه وقائمه جميعاً من
الجل الى صفين ، وليس فى بنى الانسان من هو أشجع
قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين فى يوم كربلاء
وقد تربى للشجاعة كما تلقاها فى الدم بالوراثة ، فتعلم

فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه
ولم تفته ألعاب الرياضة التي تتم بها مرانة الجسم على الحركة
والنشاط ، ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الأوروبيين
كانوا يسمونها المداحى جمع مدحاة ، وهى أحجار أمثال
القرصة يحفرون فى الأرض حفيرة ويرسلون تلك الأحجار ،
فمن وقع حجره فى الحفيرة فهو الغالب

أما عاداته فى معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال
الذوق والقصد فى تناول كل مباح . كان يحب الطيب
والبخور ، ويأتى للزهر والريحان ، وروى أنس بن مالك أنه
كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيتها
بها . فقال لها : أنت حرة لوجه الله تعالى . فسأله أنس
متعجباً : جارية تبيضك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ قال كذا
أدبنا الله ... قال تبارك وتعالى : « وإذا حيتم بتحية فحيوا
بأحسن منها أو ردوها » وكان أحسن منها عتقها

وكان يميل للفكاهة ويأنس فى أوقات راحته لأحاديث

أشعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوخ الترف في عصره لم
يكن يقارب منه إلا ما كان يجمل بمثله . حتى تحدث
المتحدثون انه لا يعرف رائحة الشراب

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام
من الشهر يصومها غير أيام رمضان ، ولا يفوته الحج طاماً
إلا لضرورة

وقد عاش سبعاً وخمسين سنة بالحساب الهجرى وله من
الأعداء من يصدقون ويكذبون ، فلم يعبه أحد منهم بمعاينة
ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار
معاوية بعينه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له واقترحوا
عليه أن يكتب اليه بما يصغره في نفسه . فقال انه كان يجد
ما يقوله في علي ولكن لا يجد ما يقوله في حسين

تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين
ويقف خصمه أمامه موقف المقاتلة والمناقضة لا موقف

المقارنة والمعادلة في معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله
فيزيد بن معاوية عريق النسب في بني عبد مناف ثم في
قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والمقادحين
متفقون على وصف الخلائق التي اشتهر بها أبناء هذا الفرع
من عبد مناف . وأشهرها الأثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها
تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها . ونذر من وجوه
الأمويين في الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى
صاحبها ضرراً أو مشقة في سبيل نفع الناس

وبيت أبي سفيان بيت سيادة مرعية لا مرء فيها
ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نذكر في هذا المقام ان
معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليرث شيئاً من هذه السيادة
التي كان قوامها كله وفرة المال . لأن أبا سفيان على ما يظهر
قد أضع ماله في حروب الاسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى
على كثرة الوراثة . وروى ان امرأة استشارت النبي عليه
السلام في الزوج بمعاوية فقال لها : انه صعلوك !

كذلك ينبغي ان نذكر حقيقة أخرى في هذا المقام ،
وهي ان معاوية لم يكن من كتاب الوحي كما أشاع خدام
دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي عليه
السلام في عامة الحوائج وفي اثبات ما يجبي من الصدقات وما
يقسم في أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبي شيئاً
من آيات القرآن الكريم

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة
كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك
حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجراً ابن
عدى وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته
فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : « ما قتلت
أحداً إلا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجراً فاني لا أعرف
بأى ذنب قتلته »

وأم يزيد هي ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بني
كلب المعرقات في النسب ، وهي التي كرهت العيش مع معاوية

في دمشق وقالت تتشوق إلى عيش البادية

للبس عباءة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف

وبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف

ومن هذه الأبيات قولها :

وخرق من بنى عمى فقير أحب إلى من علج عنيف !

فأرسلها وابنها يزيد إلى باديتهما ، فنشأ يزيد مع أمه

بعيداً عن أبيه .

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع

الاقوياء وليكنها على ما هو مألوف في أعقاب السلالات القوية

تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم

فكان ما استفاده من بادية بنى كلب بلاغة الفصحى

وحب الصيد وركوب الخيل ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب

وهذه صفات في الرجل القوى تزينه وتشجذ قواه ،

وليكنها في أعقاب السلالات — أو عكارة البيت كما يقال

بين العامة — مدعاة إلى الاغراق في اللهو والولع بانفراغ

لأنها هي عنده كل شيء وليست مدداً لغيرها من كبار
الهمم وعظائم الهموم

وهكذا انقلبت تلك الصفات في يزيد من المزية إلى
النقيصة ، فكان كلفه بالشعر الفصيح مغرياً له بمعاشرة الشعراء
والندماء في مجالس الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلاً يحجبه
عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات
مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرايين والفهادين ، فكان
له قرد يدعوهُ أبافيس يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب
والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه اتانا في السباق
ويحرص على أن يراه سابقاً مجلياً على الجياد ، وفي ذلك يقول
يزيد كما جاء في بعض الروايات :

تمسك أبافيس بفضل عنانها

فليس عليها إن سقطت ضمان

ألا من رأى القرد الذي سبقت به

جياد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغاً في المذمة حين
قال فيما نسب إليه : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا
أن نرمى بالحجارة من السماء . إن رجلاً ينكح الأمهات
والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة والله لو لم
يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً »

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجتماعها على إدمانه
الخمر وشغفه بالذات وتوانيئه عن العظام ، وقد مات
بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، وأهلها
إصابة الكبد من إدمان الشراب والافراط في اللذات ، ولا
يعقل أن يكون هذا كله اختلاقاً واختراعاً من الأعداء لأن
الناس لم يختلفوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص
وهما بغيضان أشد البغض إلى أعداء الأمويين ، ولأن الذين
حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه
تحل عندهم محل مساوئته وعيوبه ، كأن الاجترار على مثل هذا
الثناء من وراء الحسبان

ولم يكن هذا التخلف في يزيد من هزال في البنية او
سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعتري احيانا بقايا السلالات
التي تهيم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالا في الأخلاق
وسقما في الطوية ، قعد به عن العظام مع وثوق بنيانه
وضخامة جثثانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التي تزيد
في وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب
في صباه بمرض خطير - وهو الجدرى - بقيت آثاره
في وجهه إلى آخر عمره ، ولكنه مرض^ه كان يشيع في
البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن
الطموح والكفاح

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد هوا وفراغا
كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق إليه عزائم
الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه
فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف إلى القسطنطينية لغزو
الروم ودفاعهم عن بلاد الاسلام - أو بلاد الدولة الأموية -

تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن
في طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما ان أبلى بما لاقت جموعهم

بالفرقدونة من حمى ومن موم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً

بدير عمران عندي أم كلثوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش

ليدراً عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع

مقاله في خلواته

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمت في كل شيء بين

الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها

من مزايا الحسين ، حتى في تلك الخصال التي تأتي بها

المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ! ومنها مزية السن

وسابقة الميلاد .

فلما تنازعا البيعة كان الحسين في السابعة والحسين

مكتمل القوة ناضج العقل وافى المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان
يزيد في نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شؤون الرعاة
ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء .

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء
العصور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول في أمة العرب
حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية
الأعمار ... وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التي
تعلو بمصاحبها في الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء
العزيمة .

كذلك لا يقال إن « الوراثة المشروعة » في الممالك
كان لها شأن يرجح يزيد على الحسين في ميزان العروبة
والاسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية
معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون في
ذلك الزمان ، ولم يكن معقولا أن العرب في صدر الاسلام
يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة

آل النبي في أمر الخلافة لأنهم قرابة محمد عليه السلام
فقد شامت عجائب التاريخ إذن أن تقيم بين ذينك
الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية كما لم تتضح قط في
أمثالها من القضايا . فقد وجب أن ينفذ يزيد كل
الخدلان أولاً النزعة النفعية التي أعانته وهو غير صالح لأن
يستعين بها بغير أعوان من بطائنه وأهله ، ولئن كان في
تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضع
لتكون هي عصبية القبيلة من بني أمية ، وهي هنا نزعة
مواربة تعارض الايمان الصريح ولا تسلم من الختل والتليس
لهذا شك بعض الناس في اسلام ذلك الجيل من
الأمويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية
المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك في صدق دين أبي سفيان
لأن اخباره في الاسلام تحمل التأويلين ، ولكن معاوية
كان يؤدي الفرائض ويتبرك بتراث النبي ويوصي أن تدفن
معه أظافره التي حفظها إلى يوم وفاته ، وليس ييسر علينا

أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثانى على تلك التقوى وذلك
الصالح وهو ناشئ فى بيت مدخول الاسلام ، يتصارع أهله
أحياناً بما ينم على الكفر به أو التردد فيه
إنما هى الأثرة ؛ ثم الخرق فى السياسة ، ثم التماذى فى
الخرق مع استثارة العناد والعداوة ، وفى تلك الأثرة
ولو احقها ما ينشئ المقابلة من أحد طرفيها فى هذه الخصومة ،
ويُتم المناظرة فى شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين ،
ونعنى بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين والزيد إلا
المثالان الشاخصان منهما للعيان

أخوان الفريسيين

كان الحسين في طريقه إلى الكوفة يوم دعاه شيعته
إليها - يسأل من يلقيهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم
بينه وبين بني أمية ، وقلما اختلفوا في الجواب
سأل الفرزدق وهو خارج من مكة - والفرزدق مشهور
بالتشيع لآل البيت - فقال له : « قلوب الناس معك
وسيوفهم مع بني أمية . والقضاء ينزل من السماء ، والله
يفعل ما يشاء »

وقال له مجمع بن عبيد العامري : « أما اشرف
الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد
عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى إليك
وسيوفهم غدا مشهورة عليك »

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد ، فان
الناس جميعاً كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن علي
ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بني أمية ، فهم إذن
عليه بالسيوف التي تشهرها الأيدي دون القلوب

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من
بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام
ملك بني أمية

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكائنتهم بمعزل عن الملك
القائم فقد كانوا ينصرون حسيناً ولا ينصرون الأمويين ،
أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا
الحرب على الحسين

ومن هؤلاء هانيء بن عروة من كبار الزعماء في
قبائل كندة ، وشريك بن الأعور وسليمان بن صرد الخزاعي
وكلاهما من ذوى الشرف والدين

بل كان من العاملين لبني أمية من يخزه ضميره إذا
بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بني أمية ليلوذ
بالمعسكر الذي كتب عليه الموت والبلاء . كما فعل الحر بن يزيد
الرياحي في كربلاء وقد رأى القوم يهيمون بقتل الحسين ولا
يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : أمقاتل

أنت هذا الرجل ؟ فلما قال : نعم ، ترك الجيش الأموي وذهب
يقترّب من الحسين حتى دافاه فقال له : « جمعت فداك
يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع
وجمعت بك في هذا المكان ، وما ظننت أن القوم
يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم
ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت . وإني
تائب إلى الله مما صنعت . فهل ترى لي من توبة ؟ »
فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها
حتى قتل ، وآخر كلمة عن لسانه فاه بها : « السلام عليك
يا أبا عبد الله ! »

فجمل ما يقال على التحقيق أنه لم يكن في معسكر يزيد
رجل يعينه على الحسين إلا وهو طامع في مال ، مستميت في
طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالي بشيء منها في
سبيل الخطام

ولقد كان معاوية مشيرون من ذوى الرأى كعمرو

ابن العاص والمغيرة بن شعبة وزيايد بن أبيه وأضرابهم من
أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش .
وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به
المطامع ويتحللون من التائبين

لكن هؤلاء بادوا جميعاً في حياة معاوية ولم يبق ليزيد
مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة للعروش ، وإنما
بقيت له شذمة على غرارة أصدق ما توصف به أنها شذمة
جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين
فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير
وكانوا في خلائقهم البدنية على المثال الذي يعهد في هذه
الطغمة من الناس ، ونعني به مثال المسخاء المشوهين أولئك
الذين تمتلئ صدورهم بالحقْد على أبناء آدم ولا سيما من كان
منهم على سواء الخلق وحسن الأحداث ، فاذا بهم يفرغون
حقْدهم في عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا

افتنعوا بالآجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذي لا تعرف
له حدود

وشر هؤلاء جميعاً هم شمر بن ذى الجوشن ومسلم بن عقبة
وعبيد الله بن زياد ، ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من
مثالهم عمر بن سعد بن أبي وقاص .

فشمر بن ذى الجوشن كان أبرص كره المنظر قبيح
الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليجمعه حجة
يحارب بها علياً وأبناءه ، ولكنه لا يتخذ حجة ليحارب
بها معاوية وأبناءه ... كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ثم ينسى
الدين والحقد فى حضرة المال

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة فى مسالـخ إنسان .
« وكان أعور أمغر ثائر الرأس كأنما يقلع رجله من وحل
إذا مشى »

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض أنه
أباح المدينة فى حرم النبى عليه السلام « ثلاثة أيام واستعرض

أهلها بالسيف جزراً كما يجزر القصب الغنم حتى ساخت
الاقدام في الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والانصار وذرية
أهل بدر وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه
من الصحابة والتابعين على أنه عبد قنٍ للأمير المؤمنين . . .
وانطلق جنده في المدينة الى جوار قبر النبي يأخذون الأموال
ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتل في تقدير الزهري سبعمائة
من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالى . ثم كتب
إلى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهمل فقال بعد
كلام طويل : « . . . فأدخلنا الخيل عليهم . . . فما صليت
الظهر أصلح الله أمير المؤمنين إلا في مسجدهم ! بعد القتل
الذريع والانتهاب العظيم ، وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من
أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم واجهزنا على جريحهم واتهمبناها
ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بني
الشهيد عثمان بن عفان في حرز وامان والحمد لله الذي شفا
صدرى من قتل اهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما

عتوا وقديماً ما طغوا . أكتب هذا إلى أمير المؤمنين وأنا
في منزل سعيد بن العاص مدنياً مريضاً ما أراني إلا لما بي ...
فما كنت أبالي متى مت بعد يومى هذا . . . »

وكل هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة إنما هو
الحقد في طبائع المسخاء الشائنين ... يوهم نفسه انه الحقد من
نار عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب في قریش لأن
أباه زياداً كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه .
ثم ألحقه معاوية بأبي سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ
زياد انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغياً فجاءوه بجارية
تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد انه - - - حملت به في
تلك الليلة . .

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا
يعيرونه بها وينسبون له اليها ، ومن عوارض المسخ فيه - - - وهى
عوارض لها في نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة -

انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية . فكان
إذا طاب الحرورى من الخوارج قال « هرورى » فيضحك
سامعوه ، وأراد مرة أن يقول اشهروا سيوفكم فقال افتحوا
سيوفكم ، فهجاه يزيد بن مفرغ قائلا :

ويوم فتحت سيفك من بعيد

أضعت وكل أمرك للضياع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدى والأرجل والأمر
بالقتل في ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففي ذلك يقول
مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل
النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظن
وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً »

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوأها يوم
تصدى عبد الله بن زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ
في شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد
يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل في

الدعوة إلى بيعة يزيد ، فكان عبيد الله من ثم حريصاً على دفع الشبهة والغلو في إثبات الولاء للعهد الجديد

والذين لم يمسخوا في جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد بن معاوية - كان الطمع في المناصب والأموال واللذات قد بلغ بهم ما يبلغه الشح من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس في الحقائق . ومن هذا القبيل عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع عبيد الله بن زياد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشؤمة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية في يديه

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الرى وهي درة التاج في ملك الأكسرة الأقدمين ، وكان يتطلع إليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل المزوف ، وينسب إليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدري واني لحائر

أفكر في أمرى على خطرين

أترك ملك الرى والرى منيتى

أم ارجع مأثوماً بقتل حسين

وفى قتله النار التى ليس دونها

حجاب ، وملك الرى قرّة عيني

فان لم تسكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك

من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه

ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضاً أن عمر بن سعد

هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا

استفزاز ، فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق

جثث القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء ، فصحن وقد

لحونها على جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون

رجالها ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم

تدعيم السلطان . ولكنهم يسمون جلادين متمربين يطيعون

ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ويطيعون ما فى أيديهم من

أموال ووعود ، وتسمى مهمتهم مذبحه طائشة لا يبالي من
يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية ان يكون هؤلاء
وأمثالهم أعواناً له فى ملكه قضى عليه من ساعتها أن يكون
علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير
سفك الدماء ، والذين يسفكون كل دم أُجروا عليه

وهكذا كان ليزيد أعوان إذا بلغ أحدهم حده فى معوته

فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال

وكان للحسين أعوان إذا بلغ أحدهم حده فى معوته فهو

شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح ، وهى اذن حرب

جلادين وشهداء

خروج الحرسین
هواری

عمل يزيد بوصية أبيه فلم يكن له هم منذ قيامه على
الملك إلا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير في
مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له في حياة معاوية
وكان الوليد بن عقبة بن أبي سفيان والى معاوية يومئذ
على المدينة . فلما جاءه كتاب يزيد بنعي أبيه وأن يأخذ أولئك
النفر بالبيعة « أخذاً شديداً ليس فيه رخصة » دعا اليه
بمروان بن الحكم فأشار عليه بمشورته التي جمعت بين الاخلاص
وسوء النية ، وفخاها ان يبعث الى الحسين وابن الزبير ،
فان بايعا وإلا ضرب عنقهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الإشارة اليه في
محضر مروان . إذ عاد الحسين إلى بيته وقد عول على ترك
المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله . فخرج منها
لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل
أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، ولزم في مسيره إلى مكة
الطريق الأعظم فلم يتنكب به كما فعل الزبير مخافة الطلب من

ورائه . فصحت في الرجلين فراسة معاوية في هذا الامر
الصغير ، كما صحت في غيره من كبار الامور

وانصرف الناس في مكة إلى الحسين عن كل مطالب
بالخلافة غيره ومنهم ابن الزبير ، فكان ابن الزبير يطوف
بالكعبة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومساءه يتعرف رأيه
وما نمي اليه من آراء الناس في الحجاز والعراق وسائر
الاقطار الاسلامية

فلبت الحسين في مكة أربعة أشهر على هذه الحال ،
يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين إلى الظهور وطلب البيعة ،
ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها . فقد كتبوا اليه يقولون
إن هنالك مائة ألف ينصرونك ، وألحوا في الكتابة
يستعجلونه الظهور

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات
المتابعات ، فبدأ له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع
طلعهم من قريب ، وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن

عقيل بن أبي طالب يمهّد له طريق البيعة ان رأى فيها محلاً
للمهيد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتاباً
يقول فيه : « أما بعد فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم
من محبتكم لقدمي عليكم ، وقد بعثت اليكم أخى وابن
عمى وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب
إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فان كتب الى أنه قد أجمع رأى
ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على
به رسلكم وقرأت في كتبكم أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله .
فلعمري ما الامام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط
والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام »

ثم بلغ الحسين أن مسلماً قد نزل الكوفة فاجتمع على
بيعته للحسين اثني عشر ألفاً وقليل ثمانية عشر ألفاً ، فرأى
أن يبادر اليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد
الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل
بيته فاختلفوا في مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح

بالمسير الى جهة غير جهة العراق

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى - وهو بعد في المدينة -
ان يبعث رسله إلى الأمصار ويدعوهم إلى مبايعته قبل قتال
يزيد فان أجمعوا على بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره
« لم ينقض الله بذلك دينه ولا عقله »

وكان عبد الله بن الزبير يقول له : « إن شئت أن
تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنك لك وبايعناك ، وان لم تشأ
البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع ولا تعصى »

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان منهم
النصيحة للحسين ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهاني.
قال : « ان عبد الله ابن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من
مكان الحسين بالحجاز ولا أحب اليه من خروجه الى العراق
طمعاً في الثوب بالحجاز ، لأن ذلك لا يتم له إلا بعد
خروج الحسين ، فلقية وقال له : على أي شيء عزمتم يا أبا
عبد الله ؟ فأخبره برأيه في إتيان الكوفة وأعلمه بما كتب

به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : فما يحبسك ؟ فوالله لو كان
لي مثل شيعتك بالعراق ما تلوّمت في شيء »

ولعل أنصح الناس له في هذه المسألة كان عبد الله بن
عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء...
سأله : ان الناس أرجفوا أنك سائر إلى العراق ، فما أنت
صانع ؟ قال قد أجمعت السير في أحد يومى هذين . فعاذه .
ابن عباس بالله من ذلك وقال له : انى اتخوف عليك في
هذا الوجه الهلاك . ان اهل العراق قوم غدر . أقم بهذا
البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك
كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت إلا أن
تخرج فسر الى اليمن ، فان بها حصوناً وشعاباً ولأبيك بها شيعه ،
فقال له الحسين : يا ابن عم ! انى أعلم انك ناصح مشفق ،
ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير . قال ابن عباس :
ان كنت لابد فاعلا فلا تخرج أحداً من ولدك ولا حرمك ولا
فسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان

وخرج في الثامن من ذي الحجة لا ينتظر العيد بمكة ،
لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل فوات
الأوان . .



وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة فأقبل عليه الناس
ألوفاً ألوفاً يبأيعون الحسين على يديه . وبلغوا ثمانية عشر
ألفاً في تقدير ابن كثير وثلثين ألفاً في تقدير ابن قتيبة
وهال الأمر النعمان بن بشير - والى الكوفة - فحار فيما يصنع
بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوماً بعد يوم ، فصعد المنبر
وخطب الناس معلناً أنه لا يقاتل إلا من قاتله ولا يثب إلا
على من وثب عليه .

وتسابق أنصار بني أمية الى يزيد ينقلون اليه ما يجري
بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل
النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة إلى البصرة
التي كان يتولاها في ذلك الحين

وقدم عبيد الله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن
جمع اليه عرفاء المدينة - أي مشايخ أحيائها - فأمرهم
أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن في أحيائهم من « طلبة
أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب » وأنذرهم « أيما
عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه
اليه صلب على باب داره وألغيت تلك العرافة من العطاء »
والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج
خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانيء
ابن عروة فقيل له انه مريض لا يبرح داره ، وكان يتعلل
بالمرض تجنباً للقائه والسلام عليه ، فذهب عبيد الله اليه
يعوده ويتلطف اليه ، وجاء في بعض الروايات انه قد أشير
على مسلم بن عقيل بقتله وهو في بيت هانيء فأبى أن يغتاله
وهو آمن في بيت مريض يعوده

وقال ابن كثير ما خواه انهم أشاورا على مسلم بن عقيل
بقتله وهو في دار شريك بن الاعور وقد علم شريك أن

عبيد الله سيعوده » فبعث الى هانيء بن عروة يقول له :
« ابعث مسلم بن عقيل يكون في داري ليقتل عبيد الله إذا
جاء يعودني ... فتحيين مسلم عن قتله ، وسأله شريك :
ما منعك أن تقتله ؟ قال : باغنى حديث عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم « ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن ،
وكرهت أن أقتله في بيتك ... قال شريك : أما لو قتلتاه
جلست في الثغر لا يستعدى به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة
ولكنك تقتله ظالماً فاجراً » ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام .
وتضطرب الأقاويل في وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها
وكثرة روايتها والعاملين فيها ، ولمكن الشائع من تلك
الأقاويل ينبئنا عن عنيت شديد لقيه عبيد الله بن زياد في
مغالبة مسلم وشيعته ، وأنه هرب مرة من المسجد لأن الناس
بصروا بمسلم مقبلاً فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق
عليه أبوابه

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه فأمر من

ينادى في الناس بشعار الشيعة : يا منصور ! أمت . ثم تقدم
الى قصر الامارة في تعبئة كتعبئة الجيش ولم يكن في القصر
إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر
اليأس عبيد الله وظن انه هالك قبل أن يدركه الغوث من
مولاه . ولكنه تحيل بما في وسع المستميت من حيلة هي على
أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره الى كل
ضوب في المدينة يعدون ويتوعدون ، وانطلق هؤلاء الأنصار
يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد وينذرون الناس
بقطع العطاء وأخذ البريء بالمدن والغائب بالشاهد ، ويبذلون
المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين . وتوسلوا
بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن
عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء
ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى ينفقوا الى دورهم
أو يدخلوا بهم في زمرة عبيد الله

فلما غربت شمس ذلك اليوم نظر مسلم حوله فاذا هو في

خمسائة من أولئك الآلاف الأربعة ، ثم صلى المغرب فم
يكن وراءه في الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت
الظلام وبقي وحيداً في المسجد لا يجد معه من يده على
منزل يأوى إليه

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة وسأل
أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقي من تلك الجموع فلم يروا
أحداً ولم يسمعوا صوتاً . فخيل اليهم انها مكيدة حرب وان
القوم رابضون تحت الظلال فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى
اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه ، فدعا الى الصلاة
الجامعة وأمر المنادين أن ينادوا في أرجاء الكوفة : « ألا
برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب —
رؤس العرفاء — والمقاتلة صلى العشاء إلا في المسجد »

وأقام الحرس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ
بهم المسجد فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلاً : برئت ذمة
الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره ، وصاح في رئيس

شرطته : « يا حصين بن نمير ! ثكلتك أمك ان ضاع باب
سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به ،
وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على افواه
السكك وأصبح غداً فاستبريء الدور وجس خلالها حتى تأتيني
بهذا الرجل »

وما هي إلا سويعات حتى جىء بابن عقيل وقد دافع
الشرط عن نفسه ما استطاع ، ووصل الى القصر جريماً
مجهداً ظمان فاهوى الى قلة عند الباب فيها ماء بارد ، فقال
له أحد أصحاب عبيد الله : اترأها ما أبردها ! والله لا تذوق
منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم ! وأنكر عمر بن
حريث هذه الفظاظة من الرجل فجاءه بقلعة عليها منديل ومعه
قدح فصب منها في القدح وأدناه منه ، فاذا هو ينفث الدم
في القدح كما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه
ثنيته ، فحمد الله وقال : لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته .
وأدخلوه على عبيد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن

سعد بن أبي وقاص فناشده القرابة ليسمعن منه وصيته ينفذها
بعد موته . فأبى أن يصغى إليه ! ثم أذن له عبيد الله فقام
معه فقال مسلم : « ان علي بالكوفة ديناً استدنته سبعائة
درهم ، فبيع سيفي ودرعي فاقضها عني ، وابعث الى الحسين
من يرده فاني قد كتبت اليه أعلمه ان الناس معه ولا أراه
إلا مقبلاً »

فعاد عمر الى عبيد الله فأفشى له السر الذي ناجاه به
وأوصاه أن يكتمه ، ثم دعا عبيد الله بالحرسى الذى قاومه
مسلم وضربه على رأسه — واسمه بكير بن حمران — فأسلم
مسلاً اليه وقال له : لتكن أنت الذى تضرب عنقه ، وصعدوا
به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا
عنقه فسقط رأسه الى الرحبة والقيت جثته الى الناس . ثم
أرسل برأسه الى يزيد مع رؤس سراة فى المدينة كان مسلم
يأوى اليهم أول مقدمه اليها ، ومنهم هانىء بن عروة الذى
تقدمت الإشارة اليه ...

كان مقتل مسلم بن عقيل في التاسع من ذي الحجة ليلة
العيد ، وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد
فلم يسمع بمقتله إلا وهو في آخر الطريق

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل
دخوله فكتب إلى أهل الكوفة كتابا مع قيس بن سهر

الصيداوي يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافي

قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه

وأشخصوه إليه ، فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب

« الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي » وينهى الناس

أن يطيعوه . فصعد قيس وقال : « أيها الناس . ان هذا

الحسين بن علي خير خلق الله . ابن فاطمة بنت رسول الله

وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقتك بالخاجر فأجيئوه ، والعنوا

عبد الله بن زياد وأباه . . » فقفوا به من حالك فمات

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر . فأبى أن يلعن

الحسين ولعن عبد الله بن زياد . فألقوا به من شرفات القصر

إلى الأرض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه
وجعل الحسين كلما سأل قادمًا من العراق أنباءً بمقتل
رسول من رسله أو داعية من دعاته . فأشار عليه بعض صحبه
بالرجوع وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ،
ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع » ووثب بنو
عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا نأرهم أو يذوقوا
ما ذاق مسلم .

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحداً إلا على
بصيرة من أمره وما هو لاقية ان تقدم ولم ينصرف لشأنه . .
فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم : « قد خذلنا شيعتنا .
فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف . ليس عليه منا ذمام »
فتفرقوا إلا أهل بيته وقليلًا ممن تبعوه في الطريق

والتقى الركب عند جبل ذي حسم بطلائع جيش عبيد الله
يقودها الحر بن يزيد التيمي اليربوعي في الف فارس ، أمروا

بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله في الكوفة
فأمر الحسين مؤذنه بالأذان لصلاة الظهر وخطب أصحابه
وأصحاب الحر بن يزيد فقال : « أيها الناس اني لم آتكم
حتى اتنى كتبكم ورسلكم ان اقدم علينا فليس لنا امام ،
لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق . فقد جئتكم . فان
تعطوني ما اطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ،
وان لم تفعلوا أو كنتم لقدومى كارهين انصرفت عنكم الى
المكان الذى أقبلت منه »

فلم يجبه أحد

فقال للمؤذن : أقم الصلاة ! وسأل الحر : أتريد أن
تصلى أنت بأصحابك وأصلى بأصحابي ؟ فقال الحر : بل نصلى
جميعاً بصلاتك

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب فبلغها وفرسان
عبيد الله يلزمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصدده عن
وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظهم وهم

يصغون اليه فقال : « أيها الناس ! ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ! من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . ألا وان هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالغي وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيري . وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتمكم ، وانكم لا تسلموني ولا تحذوني ، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم وانا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسي مع أنفسكم وأهلي من أهلكم ، فلم في أسوة . وان لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمرى ما هي لكم بنكير ، والمغرور من اغتر بكم ، فخطكم أخطائكم ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم والسلام »

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحذره
العاقة وينبئه « لئن قاتلت لتقتلن ! »

فصاح به الحسين : أبا الموت تخوفني ! ... ما أدرى ما
أقول لك . ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر
وهو يريد نصرة رسول الله نخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول
فأنشد :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى

إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما

وآسى الرجال الصالحين بنفسه

وخالف مشورا وفارق مجرما

فان عشت لم أندم ، وإن مت لم ألم

كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين

نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فردده نحو الكوفة . حتى

نزلا بنينوى ، فاذا راكب مقبل عليه السلاح يحى الحر ولا

يحيي الحسين . ثم أسلم الحر كتابا من عبيد الله يقول فيه :
« أما بعد فجمع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك
رسولي فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء ،
وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بأنفاذك
أمرى والسلام »

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد
الله بن زياد ويخشي رقبته الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ
أمره ، قال أحد أصحاب الحسين — زهير بن القين — : أنه
لا يكون والله بعد ما ترون إلا ما هو أشد منه . يا ابن رسول
الله ! إن قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا من
بعدهم . فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به . فسلم
نناجز هؤلاء . فأعرض الحسين عن مشورته وقال : اني أكره
أن أبدأهم بقتال

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على
دستى بأرض همدان فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشاً عدته

أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي
يذكر الديلم اسم أبيه — سعد — فاتح بلادهم ، وقد وعد
بولاية الري بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم الحسين الى
العراق قال عبيد الله لعمر : تفرغ من الحسين ثم تسير الى
عملك . فاستعفاه . وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :
نعم نعطيك على أن ترد إلينا عهدنا ... فاستمهل حتى يرجع
نصحاء . فنصح له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة —
وهو من أكبر أعوان معاوية — ألا يقبل مقاتلة الحسين ،
وقال له : « والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان
الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين »
وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى إذا أصبح ذهب
الى بن زياد فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من اشراف
الكوفة من ليس يغني في الحرب عنهم ، فأبى ابن زياد إلا
أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية الري .. فسار على
مضض وجنوده متثاقلون متخرجون ، إلا زعانف المرتزقة

الذين ليس لهم من خلاق

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة ،

فندب عبيد الله رجلا من أعوانه - هو سعد بن عبد الرحمن

المنقرى - ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال

الحسين وضرب عنق رجل جىء به وقيل انه من المتخلفين ،

فاسرع بقيتهم الى المسير

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو من

خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الغربى من الكوفة . نزل

بها فى الثانى من المحرم سنة احدى وستين

وخلا الجو فى الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه

فى اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر فى قضية

الحسين دون مراجعة من ذى سلطان ، وهما عبيد الله بن

زياد وشمير بن ذى الجوشن

عبيد الله المغموز النسب الذى لا يشغله شىء كما يشغله

التشفى لنسبه المغموز من رجل هو بلا مرأى أعرق العرب نسباً

في الجاهلية والاسلام ، فليس أشهى اليه من فرصة ينزل
فيها ذلك الرجل على حكمه ويشعره فيها بذله ورغبه
وشمر بن ذى الجوشن الأبرص الكريه الذى يمضه من
الحسين ما يمض كل لثيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم .
وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ،
فهما في هذه الخلة متناصحان متفاهان . !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى
يزيد ويمهد له الولاء في قلوب المسلمين ولو الى حين ، لولا
ذلك الضغن المتمزج بالخالقة الذى هو كسكر الخمور لا
موضع معه لرأى مصيب ولا لتفكير فى عاقبة بعيدة أو قريبة .
فالحسين فى أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وإبقائه
بأعينهم فى مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة

لكنهما لم يفكرا فى أيسر شيء ولا أنفع شيء للدولة
التي يخدمانها ، وإنما فكرا فى النسب المغموز والصورة
الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير إرغام الحسين واشهاد

الدنيا كلها على ارغامه .

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه ان
الحسين « أعطاني أن يرجع الى المكان الذي أقبل منه أو أن
نسيره الى أى ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتى يزيد فيضع
يده فى يده »

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن
الحسين ربما اقترح الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ولكنه لم
يعدم أن يباليه أو يضع يده فى يده ، لأنه لو قبل ذلك
لباع فى مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به الى
وجهته ، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه الى العراق قد
نفوا ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمان حيث
كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن
مكة الى العراق ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته
الناس الى يوم قتله ، فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع
يده فى يد يزيد ولا أن يسيره الى ثغر من الثغور ، ولكنه

قال : دعوني أرجع الى المكان الذي أقبلت منه أو دعوني
أذهب في هذه الأرض العريضة حتى تنظر الى ما يصير اليه
أمر الناس »

ولعل عمر بن سعد قد تجوز في نقل كلام الحسين عمداً
ليأذنوا له في حمله الى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما تجر
اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين
قد أشاعوا عن الحسين اعتزاه للبيعة ليلزموا بالبيعة أصحابه
من بعده ، ويسقطوا حججهم في مناهضة الدولة الأموية
وأيا كانت الحقيقة في هذه الدعوى فهي تكبر مائة عبيد
الله وشمر ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بمثلتهما
كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم
تخامره أو تغالب الاثم الذي فطر عليه ، فلا يصدر منهما
إلا ما يوائم لثيمين لا يتفقان على خير

وكانما جنح عبيد الله الى شيء من الهوادة حين جاءه
كتاب عمر بن سعد فابتدره شمر ينهيه ويمنحه به الى الشدة

والاعتساف ، فقال له : « أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك
وإلى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في
يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف
والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك
هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وإن عفوت
كان ذلك لك »

ثم أراد أن يوقع بعمر ويثمه عند عبيد الله ليخلفه في
القيادة ثم يخلفه في الولاية فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر
يتحدثان عامة الليل بين العسكرين

فعدل عبيد الله الى رأى شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب
عنق عمر إن هو تردد في اكراه الحسين على المسير الى
الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب الى عمر يقول له :
« أما بعد فاني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه
السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له
عندى شافعا » .. أنظر فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم

واستسلموا فأبعث بهم إلى مسلما ، وإن أبوا فازحف إليهم
حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون . فإن قتل
الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع
ظلوم ، فإن أنت مضيت لأمرنا جزيئاك جزاء السامع المطيع
وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن
وبين العسكر والسلام »

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات
ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة
ولا طالب مروءة ، ومضت مئات السنين وهي لا تمحو آثار
تلك الأيام في تاريخ الشرق والاسلام



هــل اَصَابَ
صوابي

خروج الحسين من مكة إلى العراق حركة لا يسهل
الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من
أندر حركات التاريخ في باب الدعوة الدينية أو الدعوة
السياسية ، لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل
ولا يأتي الصواب فيها إن أصابت من نحو واحد ينحصر
القول فيه ، ولا يأتي الخطأ فيها إن أخطأت من سبب
واحد يمتنع الاختلاف عليه . وقد يكون التصرف فيها بين
أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيراً من فعل المصادفة
والتوفيق فهو خليك أن يذهب إلى النقيضين

هي حركة لا يأتي بها إلا رجال خلقوا لأمثالها فلا
تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب
الذي يتوخاه في مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب
المطروق

هي حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن
نديتهم بما يعملونه رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه

الوتيرة . لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه
ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة
مساوم من مساومى التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على
حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من
يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به
ومؤمن بوجوب ايمان الناس به دون غيره . فان قبلته
الدنيا قبلها وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته
بالحياة ، بل لعل فواته بالموت اشهى إليه

هى حركة لا تقاس إذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات
ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على
الطلب من كل رجل أو فى كل أوان

ولا ننس أن السفين الستين التى انقضت بعد حركة
الحسين قد انقضت فى ظل دولة تقوم على تخطيطه فى كل
شئ وتصويب مقاتليه فى كل شئ : القول بصواب الحسين

معناه القول ببطلان تلك الدولة ، والمماس العذر له معناه
القاء الذنب عليها . وليس بخافٍ على أحد كيف ينسى
الحياء وتبتذل القرائح أحياناً في تنزيه السلطان القائم
وتأثيم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين
أو على خطئه إذن بالأمر الذي يرجع فيه إلى أولئك
الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغتمون
من عطاها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفاً غير
ذلك السيف ويغتمون من عطاء غير ذلك العطاء

إنما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين يختلفان
باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية
التي تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التي
مثلت للعيان باتفاق الاقوال

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين
في خروجه على يزيد بن معاوية فنقول أنه قد أصاب
أصاب إذا نظرنا إلى بواعثه النفسية التي تهيم عليه ولا

يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها
وأصاب إذا نظرنا إلى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة
لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع
والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم
دعى في المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟
هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله
إلى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبنى الانسان ألف مرة
أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذي أغضب يزيد بن
معاوية - من أن يكون جميع بنى الانسان على ذلك الخلق
الذي يرضى به يزيد

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي
خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الأليمة أنبيعة يزيد
لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام
في تقدير صحيح

فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتمليق ولم يجسر
معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة في ذلك
التشجيع

كان المغيرة بن شعبه والياً لمعاوية على الكوفة ثم هم
بعزله وإسناد ولايته الى سعيد بن العاص جرياً على عادته
في اضعاف الولاة قبل تمكنهم وضرب فريق منهم بفريق
حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس
المغيرة نية معاوية قدم الشام ودخل على يزيد وقال له
كالمستفهم المتعجب : لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن
يعقد لك البيعة ؟ ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل
لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال
للمغيرة : أو ترى ذلك يتم ؟ فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير
إذا أَرَادَهُ أبوه

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فعلم هذا أن فرصته سانحة
وانه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة : يرشوه باعاقته

على بيعة يزيد ويأخذ منه الرشوة بمقائه على ولاية الكوفة
إلى أن يقضى في أمر هذه البيعة وله في التمهيد لها
نصيب

فلما لقي معاوية سأله هـذا عما أخبره به يزيد فأعاده
عليه وهو يزخره له بما يرضيه . قال : « قد رأيت ما كان
من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان - وفي يزيد منك خلف
فأعقد له . فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً
منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة »

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأني : ومن لي بذلك ؟ قال
أُكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس
بعد هذين المصرين أحد يخالفك

فردّه معاوية الى عمله كما كان يتمنى وأوصاه ومن معه
ألا يتعجلوا باظهار هذه النية ، ثم استشار زياد بن أبي سفيان
فاطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول « ان أمير
المؤمنين . . . يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم . . . »

وزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد .
فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك
بالأمر فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فان دركا في تأخير خير
من فوت في عجلة »

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا
يغضبه في ابنه » وعرض عليه أن يلقي يزيد فيخبره أن أمير
المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وإنك تتخوف
خلاف الناس لهات ينقمونها عليه ، وإنك ترى له ترك
ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس »

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه
النصيحة ، وإن معاوية أخذ برأى زياد في التؤدة فلم يجهر
بعقد البيعة حتى مات زياد

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من
الغرباء عنه ، فكانت امرأته فاخته بنت قرظة بن حبيب بن
عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها عبد الله

فقلت له : « ما أشار به عليك المغيرة ؟ أراد أن يجعل لك
عدواً من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم »

واشتدت نقمة مروان بن الحكم — وهو أقرب الأقرباء
الى معاوية — حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ
العهد له من أهل المدينة وكتب الى معاوية « إن قومك
قد أبوا إجابتك إلى بيعتك » فعزله معاوية من ولاية المدينة
وولاهها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن يشور ويعلم
الخروج وذهب إلى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا
له : « نحن نملك في يدك وسيفك في قرابك ، فمن رميته
بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه . الرأى رأيك ، ونحن طوع
يمينك »

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير إلى دمشق فذهب
الى قصر معاوية وقد أذن للناس فمنعه الحاجب لكثرة من
رأى معه فضربوه واقتحموا الباب . ودخل مروان وهم معه
حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول . خاف معاوية هذا

الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع وجعل له
الف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته
ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بنى أمية من بيعة
يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه
بالخلافة لأنه ابن عثمان الذى تذرع معاوية الى الخلافة باسمه .
فقال لمعاوية : يا أمير المؤمنين . علام تباع ليزيد وتتركنى ! فوالله
لتعلم أن أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه ، وإنك إنما
نلت ما نلت بأبى » فسرى معاوية عنه وقال له ضاحكا هاشا :
« يا ابن أخى ! أما قولك أن أباك خير من أبيه فيوم من
عثمان خير من معاوية ، وأما قولك أن أمك خير من أمه
ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وإما أن أكون نلت ما
أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتیه الله من يشاء ... قتل أبوك
رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن
أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيراً من يزيد
فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك يزيد . ولكن

دعنى من هذا القول وسلى أعطك ، وولاه خراسان
فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملا فى الخلافة بعد
معاوية ، وكان بفضهم لبيعة يزيد على قدر أمهم فيها ،
وهؤلاء - وان جمعهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن - لم تكن
منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء وتبشره
بالضمان والقرار

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة
والاكراه .

وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب
القرباء .

وظهر من اللحظات الأولى أن المغيرة بن شعبه كان
ممسارا يوافق على ما لا يملك . فقد ضمن الكوفة والبصرة
ومنع الخلاف فى غيرها ، فاذا الكوفة أول من كره بيعة
يزيد ، وإذا البصرة تتلكأ فى الجواب وواليتها يرجى الأمر

ويوصى بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية في حياته ، وإذا
أطراف الدولة من ناحية همدان تشور ، وإذا بالحجاز يستعصى
على بني أمية سنوات ، وإذا باليمن ليس فيها نصير للامويين
ولو وجدت خارجا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها
كثورة الحجاز

بل يجوز أن يقال - مما ظهر في حركة الحسين كل الظهور -
أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان
دعوى الحسين . فقد كانوا يتخرجون من حرب الحسين
ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، إلا أن يهدد
بقطع الأرزاق وقطع الرقاب

والحوادث التي تلت حركة الحسين الى ختام عهد يزيد
أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه . لأن
الاحداث والنذر لم تزل تتوالى ببقية حياته وبعد موته بسنين
ونحن اليوم نعلم من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث
والنذر في عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيل إلينا أن عواقبها

لم تكن تحمل الشك ولم يكن بها من خفاء . ولكن
الذين استقبلوها كانوا خلقاء الا يروا فيها طوابع ملك
تعنو له الرؤس ويرجى له طول البقاء

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد في
الخلافة رضى المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة
الموئل والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم
أياه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم الى سياسته واعتمادهم
على صلاحه واصلاحه

ولكنه على نقيض ذلك كان كما علمنا رجلا هازلا في
أحوج الدول الى الجدد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه
اصلاح . وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض
كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعوثته جهره وعلانية من المال
أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبيعوا
وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبيعوه وإن تعطلت حدود

الدين وتقوضت معالم الاخلاق

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن علي أن يسايح
مثل هذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ويشهد له عندهم أنه
نعم الخليفة المأمول صاحب الحق في الخلافة وصاحب القدرة
عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه أو الخروج .
لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لاله ولا عليه

إن بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من
الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان
في كف الميزان

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية
في نفس الحسين لم تكن مسألة مزاح أو مساومة ، وأنه كان
رجلا يؤمن أقوى الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقاد
أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالامة
العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد ..
فمن كان إسلامه هداية نفس فالاسلام عند الحسين هداية

نفس وشرف بيت .

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبون
ويسبون أباه على المنابر ولم يجسر أحد منهم قط على المساس
بوره وتقواه ورعايته لأحكام الدين في أصغر صغيرة يباشرها
المرء سرا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبوه بشيء غير خروجه
على دولتهم فقصرت الستهم والسنة الصنائع والاعزاء دون
ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على الدين في
رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟
وكيف يسام أن يرشح للإمامة من لا شفاعة له ولا كفافة فيه
إلا أنه ابن أبيه ؟

لقد كان أبوه معاوية على كفافة ووقار وحنكة ودراية
بشئون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون
أولو براءة وأحلام تسكب من السلطان ما جمع وتقيم ما
انحرف وتملى له فيها عجز عنه . وهذا ابنه القائم في مقامه
لا كفافة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون . إلا من كان

عوناً على شر أو موافقاً على ضلالة . فما عسى أن تكون
الشهادة له بالصالح للإمامة إلا تغريراً بالناس وقناعة بالسلامة
أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟

ثم هي خطوة لارجعة بعدها إذا أقدم عليها الحسين بما
أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة . فاذا بايع يزيد فقد
وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما
حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعمل بها المتعلل
لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج

فملك يزيد لم يقيم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه
أو لشرفه أو للأمة الإسلامية ، ومن طلب منه أن ينصر
هذا الملك فأنما يطلب منه أن ينصر ما- كما ينكر كل
دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد هذا
كله أن هذا الملك كان يقرر دعاؤه في أذهان الناس
بالغض من الحسين في سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه .
فكانوا يسبون علياً على المغابر وينعتونه بالكذب والمروق

والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهرونهم
على سبه والنيل منه بمشهد من الناس ، وإلا أصابهم العنت
والعذاب وشهروا في الأسواق بالصلب والهوان . فجاراة
هذه الأمور كلها في مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد
وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل يغير أمل في التغيير
والتبديل . فمن أقر هذه السنة في مفتتح هذا الملك الجديد
فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما بعد يوم ،
وازداد مع الزمن ضعفاً كما ازدادت حجة خصومه قوة عليه
هذه هي البواعث النفسية التي كانت تجمش في صدر
الحسين يوم دعاه أولياء بني أمية إلى مبايعة يزيد والنزول
عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته في امامة المسلمين ، كائناً
من كان القائم بالامر وبالغا ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان
الحجة . وهي بواعث لا تشنيه عن الخروج ولا تزال تلح
عليه في اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ،
وهما الخروج إن كان لابد خارجاً في وقت من الأوقات ،

أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له إيمان

أما نتائج الحركة كلها - إذا نظرنا إليها نظرة واسعة -

فهى أئبح للقضية التى كان ينصرها من مبايعة يزيد

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد

ذلك بأقل من أربع سنوات

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق

الجزاء بكل رجل اصابه فى كربلاء ، فلم يكدر يسلم منهم أحد

من القتل والتفكيك مع سوء السمعة ووسواس الضمير

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مديد

الأجل . فلم يتم لها بعد مصرع الحسين فيف وستون سنة !..

وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن فى جثمانها

حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة

تفتح لها طريقا إلى الاسماع والقلوب .

ولا صابة هذه الحركة فى نتائجها الواسعة دخل فى روع

بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه توخاه
منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه ، فلم بخامره الشك
في مقتله ذلك العام ولا في عاقبة هذه الفعلة التي ستحقق
لا محالة بقاتليه بعد أعوام

فقال ماربين الألماني في كتابه « السياسة الإسلامية »
ان حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزيمة قلب
كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله
وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته
ويحيى به قضية مخدولة ليس لها بغير ذلك حياة

فان لم يكن رأى الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق
لا شك فيه ، ويصدق ذلك - في رأينا - على حركة الحسين
بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذي يرتضيه ، فأثر
الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحققه بيني أمية من جراء قتله ...
فهو بالغ منهم بانتصاره عليه ما لم يكن ليبلغه بالنجاة من
وقعة كربلاء .

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته
الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه في الحجاز . فقال
لهم « إن الموت خُط على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه
يركب الخطة التي لا يبالي راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء
ولكنه لم يكن ييأس من إقناع الناس والتفافهم به منذ
خطوته الأولى . ولم يعقد عزمه على ملاقة الموت حتى ساموه
الرغم وأبوا عليه أن ينصرف إلى أي منصرف قبل التسليم
المهين ، مسوقا على الكره منه إلى عبيد الله بن زياد
وتباین آراء المتأخرين خاصة في خروج الحسين بنسائه
وأبنائه أكان هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والأكرم
أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له
أو إعراضهم عنه وضعفهم في تأييده
وليس للمتأخرين أن يقضوا في مسألة كهذه بعقولهم
وعاداتهم لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربي وعاداته
في أشباه هذه المواقف . وقد كان اصطحاب النساء والأبناء

عادة عربية في البعوث التي يتصدى لها المرء متعمدا القتال
دون غيره فضلا عن البعوث التي قد تشتبك في القتال وقد
تنتهى بسلام ، كبعثة الحسين

فكان المقاتلون في وقعة ذي قار يصطحبون حلائلهم
وذرائهم ويقطعون وُضن الرواحل - أى أحزمتها - قبل خوض
المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معا يصطحبون الحلائل
والذرائى في غزوات النبي عليه السلام ، وكان مع المسلمين في
حرب الروم صفوة نساء قریش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبي
عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة في غزواته
وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهى عادة
عربية عريقة يقصدون بها الأشهاد على غاية العزم وصدق
النية فيما هم مقبلون عليه ، وفي معلقة ابن كثوم إشارة مجملة
إلى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان

تحاذر أن تقسم أو تهونا

يقتن جيادنا ويقان لستم
يعولتنا اذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس للجهاد
يخوضونه ان قضى عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم
في أنفسهم وفي أبنائهم وأموالهم لأنهم يطلبون به ما هو
أعز على المؤمن من النفس والولد والمال . فليس من المروءة
أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى
حجة في يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم
إذا غلبوه وأخفق في مسعاته . فيكون أقوى ما يكون
وهو مقتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول

والمسلم الذى ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن
ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، وإلا فما هو
بنصره على الإطلاق ، وتنقلب الآية في حالة الخذلان ،

فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذى
يوشك أن ينقلب عليه

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز إلى
العراق كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التى تنهض بمثلها
ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها
وانها قد وصلت إلى نتائجها الفعالة من حيث هى قضية
عامة تتجاوز الأفراد إلى الأقباب والأجيال ، سواء اكانت
هذه القضية نصره لآل الحسين أم حربا لبني أمية
إنما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين ننظر اليها من
زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهى زاوية العمل
الفردى الذى يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع
العاجل للقائمين به والداعين اليه
فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين
بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة

وعلة ذلك ظاهرة قريبة

وهي أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها
التي يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من
ثمن ومهما تتطلبه من وسيلة
وهنا غلطة الشهداء

بل قل هنا صواب الشهداء

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذي يصاب
لأن الواقع يخله ولا يجري معه الى مرماه ؟
ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذي « يكلف
الأيام ضد طباعها » ويصدق الخير في طبيعة الانسان والخير
عزيز والدنيا به شحيحة ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه

لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث

لا تتسنى خلافة الراشدين ، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية

التي يضمن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها بوسائلها
فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جداً من عنايته

بالتنظيم والالزام

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليتين
من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هي التي
أوصى بردها الى أصحابها قبل قتله

وتلك عقبة من العقبات التي تعوق الدعوات الكبار
ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل

فلو أنه طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية
لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسراً له
بعد أن تجمع حوله الأنصار وبائع الحسين على يديه ثلاثون
الفاً كما جاء في بعض الروايات . ففي تلك اللحظة لعله كان
يستطيع أن يحيط بقصر الوالي الأموي ويستولي عليه وينشئ
الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن
يوجه الدعوة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقم

الولاء ويحشد الأجناد

فإذا كان هذا قد فاتته حتى خف الأمويون لدرء الخطر
عنهم وبعثوا الى الكوفة بعبيد الله بن زياد فقد سبق عبيد
الله هذا في يوم من الايام الى يديه وكان في وسعه أن
يبيض به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرا
من أعنف أنصاره

وقد فاتته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه في رأيه ،
أو لانه اعتقد أن الحق بين وأن الباطل بين فلا حاجة به
بعد التمييز بينهما الى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده
لاهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر
الدماء بالشبهات

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه في الخلافة قائم على
شيء واحد وهو إقبال الناس إليه طائعين ومبايعتهم إياه
مختارين . فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفاً
في اليقين فالرأى عنده أن يكتب إلى صاحبه يعلمه بانفضاض

الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك
حتى يثوبوا اليه .

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لانفهمها نحن
الآن ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من
عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من
قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين

لم يكن الصراع بين على ومعاوية على هذا الوضوح
الذي لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة
ولكنه فيبيعة الحسين كان قد وضع وضوح الصبح
لدى عيني

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد
الفداء في سبيل العقيدة والايمان : بعد العهد الذي كان
الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب
أبيه وأخيه وبنيه إن خالفوه في أمر الاسلام : بعد العهد

الذى كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من
المشركين وفي أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعازل
والأزواد : بعد العهد الذى تغير فيه الناس ، وخيل إلى
من كان يعدمهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون

فكيف ينخزل الحسين وينتصر يزيد فى عالم شهد النبوة
وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها
الحسين فى ساعة يأسه تشفى عن مبلغ يقينه بوجوب الحق
وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال :
« الناس عبيد الدنيا والدين لعق على سنتهم يحوطونه
ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون »
ان الطبائع الأرضية لا تنخدع فى صلاح الناس ولا
تعجب هذا العجب . ! لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا
تصدق ما وراءه من الآمال والوعود . !

إنها لا تفضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها
من طريق ، إنها تؤثر القنديل الخافت فى يدها على الكوكب

اللامع في السماء ، لأنها لا ترى الكوكب اللامع في السماء ،
لا لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن
ذاك جد بعيد

إنها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها
ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر إلى السراب
ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع
والشراء .

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات
وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة
وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ
المساومين ..

وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يصلح
عليها أمر بني الانسان ، فان بني الانسان ما بهم من غنى قط
عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وأنهم لهم الشهداء
وأنهم لعل صواب في المدى البعيد ، وان كانوا على

خطأ في المدى القريب : مدى الأجواف والمعدات والجلود
لامدى الارواح والأخلاق

من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه ، بل هو
أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع في تاريخ
البشر أجمعين

فلا جرم يصيب في المدى البعيد ويخطئ في المدى
القريب : مدى المنفعة التي تناله هو في معيشة يومه ، وهو
المدى الذي لا يأسف عليه ولا ينص الركاب اليه

کربلاء
مروزی

عرفت قديماً باسم « كور بابل » تم صحفت الى كربلاء
فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين
الكرب والبلاء ، كما وسمها بعض الشعراء

ولم يكن لها ما تذكر به في أقرب جيرة لها فضلا عن
أرجاء الدنيا البعيدة منها . فليس لها من موقعها ولا من
تربتها ولا من حوادثها ما يغري أحداً برؤيتها ثم يثبت في
ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها

فلعل الزمن كان خليقاً أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصراً
بعد عصر دون أن يسمع لها اسم لو يحس لها بوجود .
الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل في زمرة تلك
الجيرة بغير حساب

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق إليها ركب الحسين
بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها
منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن يقتن

بتاريخ بنى الانسان حينما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق
بها التنويه والتخليد

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره
غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من
التنويه والتخليد لحق لها أن تصبح مزاراً لكل آدمى يعرف
لبنى نوعه نصيباً من القداسة وحظاً من الفضيلة . لانا لا
نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقرن اسمها بجملة من
الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التى
اقرنت باسم كربلاء بعد مصرع الحسين فيها

فكل صفة من تلك الصفات العلية التى بها الانسان
إنسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم - فهى
مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة
الجرداء

وليس فى نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم
له من الايمان والفداء والايثار وبقظة الضمير وتعظيم الحق

ورعاية الواجب والجلد في المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة
في وجه الموت المحتوم . وهي - ومثيلات لها من طرازها - هي
التي تجلت في حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ،
ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط في موطن من المواطن تجليها
في تلك الحوادث التي شاء القدر أن تكون في جانب منها
أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها في الجانب الآخر
منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات

وحسبك من تقويم الأخلاق في تلك النفوس أنه ما من
أحد قتل في كربلاء إلا كان في وسعه أن يتجنب القتل
بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم جميعا آثروا الموت عطاشا جياعا
مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ،
لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة

أو حسبك من تقويم الأخلاق في نفس قائدها وقودتها
أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولا يبتعث المرء روح
الاستشهاد فيمن يلازمه إلا أن يكون هو أهلا للاستشهاد في سبيله

وسبيل دعوته ، وأن يكون في سليقة الشهيد الذي يأتي به الشهداء

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه وقد علم
أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

ألسنا على الحق ؟ قال الوالد المنجب النجيب : بلى والذي
يرجع إليه العباد . فقال الفتى : يا أبة ! فاذن لا نبالي !

وكذلك كانوا جميعاً لا يبالون ما يلقون ، ما علموا
أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون

وأراد الحسين وقد علم أن التسليم لا يكون أن يبقى
للموت وحده وألا يعرض أحداً من صحبه . فجمعهم مرة
بعد مرة وهو يقول لهم في كل مرة « لقد بررتم وعاونتم
والقوم لا يريدون غيري . ولو قتلوني لم يبتغوا غيري أحداً .

فإذا جنكم الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم »

فكانما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد لهم النجاة ،

وفزعوا من رجائهم إياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالشباب

والبقاء . وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام . ماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم ! أنقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا وتركناه غرضا للنبل ودريئة للرماح وجزراً للسباع وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله . بل نحيا بحياتك ونموت معك .. » قالوا له نموت معك ولك رأيك ، ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدو عن رأيه إشاراً لنجاتهم ونجاته . ولو خادعوا أنفسهم قليلاً لزينوا له التسليم ومموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أنه يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعاً على ذلك

ولم يكونوا جميعاً من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوه له ولأنفسهم هذه النصيحة التي ترهب العار ولا ترهب الموت . فقال له زهير بن القين : والله لو ددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى اقتل هكذا ألف مرة

ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء
الفتيان من أهل بيتك

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من
السلامة : أنحن نخلي عنك ؟ وبم نعتذر الى الله في أداء
حقوقك ؟ لا والله حتى اطعن في صدورهم برمحى واضربهم
بسيفي ماثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم
به لقدقتهم بالحجارة . والله لآنخليك حتى يعلم الله أنا قد
حفظنا غيبة رسوله فيك . وأما والله لو علمت أنني أقتل
ثم أحيى ثم أحرق ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بي
ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى التقي حماي دونك . . . »
وجيء الى رجل من أصحابه الغرباء نبأ عن ابنه في
فتنة الديلم فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون أساره بغير فداء
فاذن له « الحسين أن ينصرف وهو في حل من بيعته ويعطيه
فداء ابنه . فابى الرجل أباء شديدا وقال : عند الله
احتسبه ونفسي ، ثم قال للحسين : هيهات أن أفارقك ثم

أسأل الركبان عن خبرك . . لا يكن والله هذا أبدا . . «
وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الأعلى في نفس
قائدهم الكريم . يخيّل الى الناظر في أعماله بكربلاء أن
خلائقه الشريفة كانت في سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم
كله ، فلا يدرى أكان في شجاعته أشجع أم في صبره
أصبر أم في كرمه أكرم أم في إيمانه وأنفته وغيرته على
الحق بالغا من تلك المناقب المثلى اقصى مداها . الا أنه كان
يوم الشجاعة لامراء ، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التي
تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها .
فكان الحسين - شبل على - في شجاعته الروحية والبدنية
معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول
من أشجع الشجعان في أبناء آدم وحواء
ملك جأشه وكل شيء من حوله يوهن الجأش ويحل
عقدة العزم ويغري بالدعة والمجاراة
ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبنائه في نصارة العمر

يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبيكون ، وملك جأشه
روية وأناة ولم يملكه وثبة وائب الى الغضب أو هيجة
مهتاج الى الوغى . فكان قبل القتال وفي حومة القتال
قويا بصيرا ينفذ الضعف عن عزائه كما ينفذ الأسد
غبرات الحصباء عن لبدته ، ولم يخامرہ الأسف قط في ذلك
الموقف المرهوب الا من أجل احبائه وأعزائه الذين يراهم
ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه ، فقال وهو ينظر الى
الأخبية ومن فيها : لله در ابن عباس فيما أشار به على !
وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهامها له بين يديه
ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يادهر أف لك من خليل

كم لك بالاشراق والأصيل

من صاحب وماجد قتيل

والدهر لا يقنع بالبديل

والأمر في ذاك الى الجليل

وكل حى سالك سبيلي

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيد ألماً على ألمه . وسمعتة أخته زينب
فلم تقو على حنانها ووجلها وخرجت اليه من خبائها حاسرة
تنادى واثكلاه ! . . . اليوم مات جدى رسول الله وأمى
فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسن . فليت الموت أعدمنى
الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين !

فبكى لبكائها ولم يشن ذرة عن عزمه الذى بات عليه
وقال لها : يا أخت ! لو ترك القطا لنام . . . ولم يزل
يفاشدها ويعزيها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على
مواجهة الموت وابعاء التسليم او النزول على « حكم ابن مرجانة »
كما قال . . . ثم احتملها مغشياً عليها حتى ادخلها الخباء .
تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع او تنخب
وتحضر المطالب أو تغيب ، وهذه الخلائق العلوية فى صدر
الانسان أحق بالبقاء من الممالك وماحوته ، ومن الدول

وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض
وكواكب السماء .

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك
تلك الفئة الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين
طرفين ، وتباعد ما أبعد ما تكون المسافة بين قطبين . فكل
ما فيها أرضى مظلم مسف بالغ فى الأسفاف ، وليس فيها من
النفحة العلوية نصيب

المصادقات نظام وتدبير ؟

نحن لا نعلم إلا أنها مصادقات يخفى علينا ما بينها من
الوشائج والصلات ، ولكنها - لذلك - هى الأعاجيب التى
تستوقف النظر لعجبتها العاجب وإن لم تستوقفه لما يفهمه
فيها من نظام وتدبير

خيرة كربلاء كانت قديماً من معاهد الايمان بحرب
النور والظلام ؛ وكان حولها أناس يؤمنون بالفضل الدائم

بين أورمزد واهرمان ، ولكنه كان في حقيقته ضرباً من
المجاز وفناً من الخيال .

وتشاء مصادفات التاريخ ألا ترى هذه البقاع التي آمنت
بأورمزد واهرمان حرباً هي أولى أن تسمى حرب النور
والظلام من حرب الحسين ومقاتليه

وهي عندنا أولى بهذه التسمية من حرب الاسلام
والمجوسية في تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية ،
لأن المجوسى كان يدافع شيئاً ينكره ففي دفاعه معنى من
الايان بالواجب كما تخيله وراه ، ولكن الجيش الذى أرسله
عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشاً يحارب قلبه
لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . إذ لم يكن فيهم
رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق
يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفج عن عقيدة غير عقيدة
الاسلام ، إلا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ،
ولا نخالهم كثيرين

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة لما لصقت بهم وصمة
النفاق ومسبة الأخلاق. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا
أنه الواجب أنبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله
ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون
ومن ثم كانوا في موقفهم ذاك ظلاماً مطبقاً ليس فيه
من شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء .
فكانوا حقاً في يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح
قوة من عالم النور

أقربهم إلى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرغبة لأنهم
أكرهوه بالسيف على غير ما يريد . فكان الجبن أشرف
ما فيهم من خصال السوء

وكان منهم أناس كتبوا إلى الحسين يستدعونه إلى
الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد
للقائه وسؤاله أحجموا عما ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم
ان سألوه في شأن مجيئه إليهم ، اننى جئتكم ملبياً مادعوتكم إليه !

وركب أناساً منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم
عرفوا الأثم فيما اقترفوه عرفانا لا تسمعهم المغالطة فيه ، ومن
هؤلاء رجل من بني ابان بن دارم كان يقول : « قتلت
شاباً أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود ، فما نمت
ليلة منذ قتلتَه إلا أتاني فيأخذ بتلابيبي حتى يأتي جهنم
فيدفعني فيها فأصيح فما يبقى أحد في الحى إلا سمع صياحى »
ورأى هذا الرجل صاحباً له بعد حين وقد تغير وجهه واسود
لونه فقال له : ما كدت أعرفك . وكان يعرفه جميلاً شديد البياض
ومنه من كان يتزاور عن الحسين في المعمة ويخشى
أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم
علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاورا عنه ولم يتحاشوه لكانت
الحرب هنالك حرباً بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ،
ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم إياه . فإذا هم يحاربون
رأيهم الذى يدينون به ، ووليهم الذى يضمرون له الحرمة
والكرامة ، وفى ذلك خزيهم الأثم

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش
عبيد الله من شر واثم في أيام كربلاء

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع إلى التمثيل والتنكيل أو
التبرع بالأيذاء حيث لا تلجئه الضرورة إليه ، وليس قتل
الطفل الصغير الذي يموت من العطش وهو على مورد الماء
بالأمر الذي يلجئ إليه الجبن أو يلجئ إليه طلب المال ،
وقد حدث في أيام كربلاء من أمثال هذا البني اللئيم شيء
كثير . رواه الأمويون ولم تقتصر روايته على الهاشميين
والطالبين أو أعداء بني أمية ، وينبغي أن نفهم ذلك على
وجه واحد لا سبيل إلى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر في
النفس البشرية حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب
عنانها حتى تعيها المغالبة فينطلق بها العنان

فالرجل الخبيث المعرق في الخباثة قد يتصرف في خلوته
تصرف الأندال ثم لا يبالي أن يعرف نذالته وهو بمنجوة
من أعين الرقباء . ولكن أربعة الآلاف لا يتصارعون بالنذالة

بينهم ولا يقول بعضهم لبعض انهم يعملون ما يستحقون به
التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علة . وانما
شأنهم في هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما
استطاعوا ليظهروا في ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون
لحظة في صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه
ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن
طوية فؤاده

وتلك لاجبة المغالطة في الشعور

أما مجاذبة النفس عنها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة
المخففة فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم : يحاول
الرجل أن يجتنب الخمر فلا يستطيع فاذا هو قد خلع العذار
وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل :
دع عنك لومي فأن اللوم إغراء

وتحب المرأة أن تستحي وتتوارى من المسبة في هواها
ثم يغلبها هواها فاذا هي قد ألقت حياءها للريح وصنعت ما

تجهم عنه التي لم تنازع نفسها قط في هوى ، ولم تشعر قط
بوطاة الخجل والاستتار

واندفاع المتهمين على الشر في حرب كربلاء بغير داع
من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضى بها شريعة القتال هو
الاندفاع الذى يسر لنا عمق الشعور بالآثم في نفوس أصحاب
يزيد ، وقد رأينا قبل عمق الشعور بلحق في أصحاب الحسين ،
وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن
خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والأذى لهذا
الميدان وغير هذا الميدان ، كشمس بن ذى الجوشن ومن
جرى مجراه . فهؤلاء لا يصنعون غير صنعهم الآثم كلما
وجدوا السبيل اليه

على أنها - بعد كل هذا - حرب بين الكرم واللؤم
وبين الضمير والمعدة وبين النور والظلام . فشانها على أية حال
أن تصبح مجالا من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى
ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت في ذلك أقصى مدى الطرفين

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة
والمناجزة أن تتقصى أوائل القتال وتتبع ترتيب الحوادث
واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها . فان الأقوال في
سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كان
هذا الترتيب في رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد
الا أن الترتيب الطبيعي يستعين للعقل من سبب الوقوف
في ذلك المكان وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن
يرد الماء حتى يكرهه العطش الى التسليم ، وكان الموقف كما
وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون

منع الفتى هينا فجر عظاما

وحى نمر الماء فانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء في بادىء الأمر دفعة وإحدة لأن
حراس المورد من جماعة عمر بن سعد لم يكونوا على جزم بما
يصنعون في مواجهة الحسين وصحبه ، فلما اندفع بعض أصحاب
الحسين الى الماء بالقرب والأدوى مانعهم القوم هنية ثم

أخلوا لهم سبيل النهر خوفاً وحيرة ، فشرّبوا ومأوا قريتهم
وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء إلى حين

والظاهر أن الشر كله كان في حضور شمر بن ذي
الجوشن على تلك الساحة ، متربصاً كل التربص بمن يتواني
في حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ثم
يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وامارة الري
بعد عزل عمر بن سعد بن أبي وقاص . فبطل التردد شيئاً
فشيئاً وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن
يصلوا إلى الماء . ولبثوا أياماً وليس في معسكرهم ذو حياة
من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى على
قطرة ماء فلا يناولها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود
والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظم
يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم إلا
الوصاة بالصبر وحسن المؤاساة

وفي ذلك المأزق الفاجع نصحت طبائع اللؤم في معسكر

ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة في البنية الآدمية...
فاقتربوا من خسة الأذى ما تنزه عنه الوحوش الضاريات
وجعلوا يتلمهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتندى له
الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفا وامتعاضاً لولا أن
القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة وبيان لما يلي من
وقعها في النفوس وتسلسل تراتها إلى أمد بعيد

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم
يبالِه ، ولكنه رأى ولده الصغير عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه
وقد بح صوته من البكاء فحمله على يديه يهيم أن يسقيه
ويقول للقوم : اتقوا الله في الطفل إن لم تتقوا الله فينا .
فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ورمى الطفل بسهم وهو
يصيح ليسمعه العسكران : خذ اسقه هذا . . . فنفذ السهم
إلى أحشائه

وكانوا يصيحون بالحسين متهانين : الاترى الى الفرات
كأنه بطون الحيات . والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشاً

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب فرماه
حصين بن نمير بسهم وقع في فيه ، فانتزعه الحسين وجعل
يقلق الدم بيديه فامتلاّت راحته من الدم ، فرمى به الى
السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « ان تكن
حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه ،
وانتقم لنا من القوم الظالمين »

وقد كان منع الماء - قبل الترامى بالسهم - نذيراً كافياً
بالحرب ويبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة ،
ولكنه رأى شمر بن ذى الجوشن أبغض مبغضيه المؤلّبين
عليه - يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم
عليها ، فأبى على صاحبه مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم
وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة . لأنه كره
أن يبدأهم بعداء

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة في الدفاع
عن مولاهم وعلم أنهم لا يخلصون في حبه ولا يؤمنون بحقه

وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة ،
فطمع أن يقرع ضائرهم وينبه غفلة قلوبهم ورمى بآخر سهم من
سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من سهام القتال .
نخرج لهم يوما بزى جده عليه السلام متقلداً سيفه لابساً
عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم فكان أول ما صنعوه دليلاً
على صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤيديهم اشفقوا أن
يتركوا له آذان القوم فينفذ إلى قلوبهم ويلبس مواقع الاقناع
من البابهم . فضجوا بالصياح والجلبة واكثروا من العجيج
والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقوا أثر موعظته فيهم ،
وهو بتلك الهيئة التي تغضى لها الأبصار وتعنو لها الجباه
ولكنه صابرهم حتى ملوا ومل اخوانهم ضجيجهم هذا
الذي يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ولا يوجب الثقة
بدعواهم عند اخوانهم . فهدأوا بعد لحظات وسمعوه يسألهم
بعد الحمد والصلاة : « انسيبوني من انا . . . هل يحل لكم
قتلي وانتهاك حرمتي ؟ الست ابن بنت نبيكم ؟ . . . او لم يبلغكم

ما قاله رسول الله لى ولأخى : هذان سيدا شباب اهل الجنة ؟
ويحكم اطلبونى بقتيل لكم قتلته او مال لكم استهلكته ؟
ثم نادى بأسماء انصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم
خرجوا لحربه فى جيش ابن زياد . فقال : يا شيث بن الربعى
يا حجار بن ابجر ! يا قيس بن الاشعث ! يا يزيد بن الحارث !
يا عمر بن الحجاج ! ... الم تكتبوا الى ان قد أينعت الثمار
واخضرت الجنات ، وانما تقدم على جند لك مجند ؟

فزلزل الارض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها
المقنع ممن فيه مطمع لا قناع ، وتحولت إلى صفة فئة منهم
تعلم أنها تتحول الى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ،
واستطابت هذا الموت ولم تستطع البقاء مع ابن زياد لا غنى
الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح
الدعوة قبل الاحتكام الى السيف . فقد كانت للبطل المجيد
زهير بن القين كلمات فى أهل الكوفة أمضى من السيوف

والرماح حيث تصيب . فركب فرسه وتعرض لهم قائلاً .
« يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار . ان
حقاً على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على
دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف
انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة . . . إن الله قد
ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر ما
نحن وأنتم عاملون ، وانا ندعوكم إلى نصر حسين وخذلان
الطاغية ابن الطاغية عبيد الله ابن زياد . فانكم لا تدركون
منهما إلا سوءاً : يسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم
ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان امثالكم
وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه »
فوجم منهم من وجم وتوقع منهم من توقع على دين
المريب المكابر إذ خلع العذار ولم يأنف من العار ،
وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين
إلى عبيد الله بن زياد

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين
إلى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين . ولكن
بداية التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على
قائد كبير من قواد ابن زياد وهو الحر بن يزيد الذي
أرسلوه في أول الأمر ليحلىء الحسين عن دخول الكوفة ،
وقد كان يحسب أن عمله ينتهى إلى هذه المراقبة ولا يعدوها
إلى القتال وسفك الدم . فلما تبين نية القتال أقبل يدنو نحو
عسكر الحسين قليلا قليلا وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد ...
حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال له : والله إن
أمرك لمريب . ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ،
ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ماعدوتك ، فباح له الرجل
بما فى نفسه وقال له : أنى أخير نفسى بين الجنة والنار ولا
اختار على الجنة شيئا ولو قطعت أو حرقت . ثم ضرب
فرسه ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلا : « لو علمت أنهم
متجهون إلى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وإنى قد

جئتُك ذائباً مما كان منى إلى ربى ، مؤاسياً لك بنفسى حتى أموت
بين يديك »

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحُر بن يزيد يؤمنون
إيمانه ويودون لو يلحقون به إلى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن
يتحول أمامهم إلى ذلك المعسكر وهم ناظرون إليه ، لأنه يمكنهم
ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به
والتدبر فى أسباب ندمه ، لا لأنه ينقص عددهم أو ينذرهم بالهزيمة
فى ميدان القتال ، فكلمهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد فى
فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد عن العقل أن يصدق
فى هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة
وانهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدباً يغلب شعور الجماعة وإيمان
المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوى ويهون عليه قتل سبط النبى
فى هذا السبيل ، وكيف وان منهم من بايع الحسين على البعد ودعاه
إليه ليقود « الجند المجند » إلى قتال يزيد ؟ فكلامهم فى البيعة
الحاصلة لخطئ لو كونه بالسنتهم ولا يستر ما فى طويتهم ، وليس أثقل

على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كما تلجلج في مكانه وحركته
القدوة التي يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة
بصاحبهم الحر بن يزيد

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقا وأشدّها حيرة وأعجلهما إلى
طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى
العسكريين

كان هناك عسكريان أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق
ولكنه كان مطمئناً إلى حقه يلقي الموت في سبيله ويزيده العطش
والضيق طمأنينة إلى هذا المصير

والعسكر الآخر أكبر العسكريين ولكنه كان «مخوّن» نفسه
في ضمير كل فرد من أفرادها ، وتملكه الحيرة بين الأقدام
والأحجام ، ويزيده الانتظار كل يوم حيرة إلى حيرة ، لأنه يكلفه
«تجديد» المغالطة ومكافحة الندم يوما بعد يوم

ثم ذاك الطمع في الولاية كيف يستمسك له الوالي الذي هو
مهديد فيه ! وكيف يستمسك له الوالي الذي هو طامح إلى مكانه !

وكيف يستريحان على هذا الطمع بين ندم وخوف وتبكيك وغمالطة
واضطراب يحز في الأعصاب ويقذف بالمرء الى الخلاص كيف
كان الخلاص ؟

وظال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهماً في الفضاء
كأنه كان متشبهاً بصدوره فاستراح منه بانطلاقه

فزحف إلى مقربة من معسكر الحسين وتناول سهماً فرماه عن
قوسه إلى المعسكر وهو يصيح : « اشهدوا لي عند الأمير اننى أول
من رمى الحسين » . . . ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم
وذهب كل تأويل في نية القوم ، وقام الحسين وهو ينظر الى السهام
وينظر الى أصحابه فقال :

« قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم » . . . وبذلك بدأ القتال
وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وإن كان على
انتظاره ايها قد تريث حتى يبدأوه بالمدوان من جانبهم ، وحتى
يجب عليه الدفاع وجوباً لاخلاف فيه

فاختار له رايية يحتمى بها من ورائه ووسع وهدتها حتى

أصبحت خندقاً لا يسهل عبوره ، فأوقد فيه النار ليمنع عليهم
الالتفاف به من خلفه ، وهم في كثرتهم التي ترجح عدة صحبه ستين
ضعفاً قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه

وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون رجلاً وهم نيف
وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الأبل ويحملون صفوفاً
مختلفة من السلاح

ومع هذا التفاوت البعيد في عدد الفريقين كان العسكر القليل
كفوا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التي كانت
دعوة مجابة في ذلك العصر ، إذا اختارها أحد الفريقين

فإن آل على جميعاً كانوا من أشهر العرب — بل من أشهر
العرب والعجم — بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع
بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى الحديد
فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذي صرع جبابرة القوة
البدنية بين العرب والعجم في زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة
رجل كان في أرض الروم يفخر به أهلها فأرسله ملكهم إلى معاوية

يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه . فجلس محمد بن الحنفية
وطلب من ذلك الجبار الرومي أن يقيمه فكان كأنما يحرك جبلا
لصلابة أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل بعجزه رفته محمد
فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات

والحسين رضي الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل علي
عمن ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ،
وكانوا كفؤا لمبارزة الأنداد واحداً بعد واحد حتى يفرغ جيش
عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل
يتبددون في منازلة الشجعان كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم له شهرة
بالشجاعة والبأس وسداد الرمي بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ،
ولن تكون صلبة الحسين غير ذلك بداهة وتقدير لا يتوقفان على
الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين في مثل تلك
الرحلة هي وحدها آية على الشجاعة في ملاقات الموت وكرم النخيزة
في ملاقات الفتنة والأغراء ، فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال

هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله فهم كفاء للمنازلة
وليس أملهم في الغلب بضعيف

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد فأشرع
أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها ، فلم تقم
الخيال للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسائها

فعدل الفريقان الى المبارزة فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن
زياد إلا فشل أو نكص على عقبه ، فخشى رؤس الجيش عقبي هذه
المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها ، وصاح عمرو بن الحجاج
برفاقه : أتدرون من تقاتلون ؟ تقاتلون فرسان المصر وقوماً
مستميتين . . . لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليل . . . لو لم ترموهم
إلا بالحجارة لقتلتموهم . . فاستصوب عمر بن سعد مقالته ونهى الناس
عن المبارزة

فلما برز عابس ابن أبي شبيب الشاكري بعد ذلك وتصداهم
للمبارزة تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيداً منه . فقال لهم عمر : ارموهم
بالحجارة ، فرموا من كل جانب . فاستمات وألقى بدرعه ومغفره

وحمل على من يليه فهزمهم وثبت لجوعهم حتى مات
وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين وهي
تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل . . . فبعث عروة بن قيس
مقدم الفرسان في جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : الا ترى
ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ؟ ابعث اليهم الرجال
والرماة . . . فبعث اليه بخمسمائة من الرماة على رأسهم الحصين بن
نمير . فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا
الفرسان والرجال

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندي ممن عدل الى جيش
الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمى النبال
والسهام جثا بين يدي الحسين وأرسل مائة سهم لم يكده يخيب منها
خمسة أسهم . وقاتل حتى مات

وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزيمة في
القتال وهجمة على الموت . ومنهم الحر بن يزيد الذي تقدم ذكره .
فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عن حرب

الحسين أو بالعدول الى صفه ، وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة
ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبال فعقروا فرسه وجرحوه
فما زال يطلب الموت ويتحري من صفوفهم أكثفها جمعا وأقفلها
نبلا حتى سقط مشخنا بالجراح وهو ينادى الحسين : السلام عليكم
يا أبا عبد الله

ولم يكن من أصحاب الحسين إلا من يطلب الموت ويتحري
مواقعه وأهدافه . فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على
أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح وقتلا يخطيء مرماه . فأحاطوا
به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من
وجهه ويديه . فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم
ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم « لقد قتلت منكم إثني
عشر رجلا سوى من جرحت ، ولو بقيت لي عضد وساعد لزدت »
واستهدف الحسين رضي الله عنه لأقواس القوم وسبوفهم فجعل
أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون إلا بين يديه . وكما سقط منهم
صريع أسرع إلى مكانه من يخلفه لياقي حتمه على أثره

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما
يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التي أوى إليها النساء
والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذوا في
إحراقها وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله
عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال
لهم : دعوهم يحرقونها . فانهم إذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا
إليكم منها »

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه في تلك المحنة المترابكة
التي تعصف بالصبر وتطيش بالألباب . وهو جهد عظيم لا تحويه
طاقة اللحم والدم ولا ينهض به إلا أولو العزم من أندر من يلد آدم
وحواء . فانه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع والسهر
ونزف الجراح ومتابعة القتال ويلقى باله إلى حركات القوم ومكائدهم
ويدبر لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ،
ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم ويتكاثر عليه وقر الأمل لحظة بعد لحظة
كلما فجع بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزيز من

أولئك الأعزاء حمله إلى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم
وينازعونه وينسون في حشرة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء
ويحز طلبهم في قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع إلى ذخيرة بأسه
فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويعرض به
عن الحياة ... ويقول في أثر كل صريع « لا خير في العيش من
بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه

وانه لفي هذا كله ، وبمضه يهد الكواهل ويقصم الاصلاب ،
إذا بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب ، وإذا بالحجارة
والسهام تلاحقه وتقساقت عليه ، وإذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين
إلى الأطفال والعبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه
واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون
الضرب عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم ان ينجو بنفسه
وقد دنت الخاتمة ووضح المصير

وكان غلام من آل الحسين - هو عبد الله بن الحسن أخيه -
ينظر من الاخبية فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيده حين

اخطأ زميله ، فهرول الغلام إلى عمه وصاح في براءته بالرجل :
يا ابن الخبيثة ! اتقتل عمي ؟ فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ،
فتلقى الغلام ضربه بيده فانقطعت وتعمقت بجملدها . فاعتنقه عمه .

وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع من يليه

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه فانفرد وحده بقتال تلك
الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون له
ثم يحمل على الذين عن يساره فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلا
ويشق الصفوف وحيدا ، ويها به القريبون فيتعبدون ، ويهم
المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون ، لأنهم تخرجوا من قتله وأحب
كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذى الجوشن
وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله : ويحكم !
ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم . . فاندفعوا إليه
تحت عيني شمر مخافة من وشايته وعقابه ، وضربه زرعة بن شريك
التميمي على يده اليسرى فقطعها وضربه غيره على عاتقه فخر على
وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه

بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت به بعد موته رضوان الله
عليه ثلاث وثلاثون طمعة وأربع وثلاثون ضربة غير إصابة النبل
والسهام ، وأحصاها بعضهم في ثيابه فإذا هي مائة وعشرون
ونزل خولي بن يزيد الأصمحي ليحتز رأسه فملكته رعدة في
بديه وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له : « فت الله في عضدك ! »
واحتز الرأس وأبى إلا أن يسلمه إليه في رعدته ، سخريته به وتماديا
في الشر وتحديا به لمن عسى أن ينعمه عليه ! وقضى الله على هذا
الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفا لا يطرقة الشك والاتهام ،
فكان ضغنه هذا كله ضغنا لا معنى له ولا باعث إليه إلا أنه من
أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به
الكرام ، ويجعلوه تحديا مكشوفاً كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم
يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهي ! ولكنهم يباغون به مأربهم إذا
آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع إليها مرتفع

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر إليها منحدرون كثيرون

فلم يكن في عسكر الحسين كله إلا رمق واحد من الحياة باق
في رجل طعين مشخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه
قد مات .

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبي المطاع أصدق الأنصار
وأنبيل الأبطال

فأبى الله لهذا الرmq الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة
يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فاذا هي
حسبها من شرف ومجد وثناء

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذي أنقله
النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد
ذهب الأمل وحم الختام ، ولم يخطر له أنه ضعيف منزوف يجهل
به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب
شيء في تلك اللحظة العصيبة إلا أن يجاهد في القوم بما استطاع ،
بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شيء يجاهد به فلم

تقع يده إلا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح ،
ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ثم وثب على قدميه من بين
الموتى وثبة المستيئس الذي لا يفر من شيء ولا يبالي من يصيب
وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليقة أن تمتد
إليه ، وانطلق هو يشخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من دعرهم
ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله
رجالان . . . فكان هذا حقا هو الكرم والمجد في عسكر الحسين
إلى الرmq الأخير

وكان حقا لا مجازا ما توخيناه حين قلنا انهما طرفان متناقضان
وانها حرب بين أشرف ما في الانسان وأوضع ما في الانسان
فبينما كان الرجل في عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا
يضمن بالرمق الأخير في سبيل إيمانه - اذا بالآخرين يقتربون أسوأ
الماآثم في وأيهم ، قبل رأى غيرهم ، من أجل غنيمة هينة لا تسمن
ولا تغنى من جوع . فلو كان كل ما في عسكر الحسين ذهباً ودراهما

أغنى عنهم شيئاً وهم قرابة أربعة آلاف ، ولكنهم ما استيقنوا
بالعاقبة - قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير - حتى كان همهم الى
الاسلاب يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النساء من بيت
رسول الله ينازعونهن الحلى والثياب التي على اجسادهن لايزعنهم عن
حرمت رسول الله وازع من دين أو مروءة ، وانقلبوا الى جثة
الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن
يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة
وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها - ثم ندبوا عشرة
من الفرسان يوطئون جثته الخليل كما أمرهم ابن زياد . فوطئوها مقبلين
ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره

وقد يساق الغنم هنا معذرة للأنثم بالغاً ما بلغ هذا من العظم
وبالغاً ما بلغ ذاك من التفاهة . لكنهم في الحقيقة قد ولعوا بالشر
للشر من غير ما طمع في مغنم كبير أو صغير . فحرموا الرى على
الطفل الظامىء العليل وأرسلوا إلى أحشائه السهام بديلاً من الماء ،
وقتلوا من لا غرض في قتله وروعوا من لا مكرمة في ترويعه .. فربما

خرج الطفل من الأخبية ناظراً وجلاً لا يفقه ما يدري حوله فينقض
عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من
الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن في الذي حدث من هذا
القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذم بعد ذلك عن حوادث
كربلاء وجرأ كربلاء . فقد قتل فعلاً في كربلاء كل كبير وصغير
من سلالة علي رضي الله عنه ولم ينبج من ذكورهم غير الصبي علي زين
العابدين . . . وفي ذلك يقول سراقه الباهلي :

عين جودي بعبرة وعويل واندبى ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب علي قد أيدوا وسبعة لعقيل
وما نجا علي زين العابدين إلا بأعجوبة من أطايب المقادير
لأنه كان مريضاً على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو
غد . فلما هم شمر بن أبي الجوشن بقتله نهاه عمر بن سعد عنه إما
حياً . من قرابة الرحم أمام النساء وقد كان له نسب يجتمع به في عبد
مناف ، وإما توقعا لموته من السقم المضني الذي كان يعانيه . فنجا
بهذه الأعجوبة في لحظة طابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ،
ولولا ذلك لباد .

ثم قطعوا الرؤس ورفعوها أمامهم على الخراب وتركوا الجثث
ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصعدون عليها كما صلوا على جثث
قتلاهم ، وصروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت
زينب رضى الله عنها : يا محمداه ! هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا
وذريتك مقتلة تسقى عليها الصبا . فوجم القوم مبهوتين وغلبت
دموعهم قلوبهم ، فبكى العدو كما بكى الصديق

لم تنقض في ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبي محمد
عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذى برّ دينهم
ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة الى النور ومن حياة
التيه فى الصحراء الى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين . ثم هذه
خمسون سنة لم تنقض بعد وإذا هم فى موكب جهير يجوب الصحراء
إلى مدينة بعد مدينة : سبايا بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه
رؤس أبناؤه على الخراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسقى عليها الصبا »

نخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا يزلون بتلك

الأنحاء ، فلما امنوا العميون بعد يوم أو يومين ساروا مع القمراء إلى
حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله — شرفاً ولا
وحشة — في الآباد بعد الآباد .

وكان يوم المقتل في العاشر من المحرم ، فكان القمر في تلك
الليلة على وشك التمام . فحفروا القبور على ضوءه وصلوا على
الجثث ودفنوها ثم غادروها هناك في ذمة التاريخ . فهي اليوم مزار
يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل
إنسان ، لأنه عنوان قائم لا قدس ما يشرف به هذا الخى الأدنى بين
سائر الأحياء

فما أظلت إقبسة السماء مكاناً قط هو أشرف من تلك القباب
بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء



جَزِيرَةُ كَرَبَلَاءَ
مَدِينَةِ

اتفقت الأقوال في مدفن جسد الحسين عليه السلام وتعددت

إما تعدد في موطن الرأس الشريف

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة إلى كربلاء فدفن مع الجسد فيها

ومنها أنه أرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص وإلى يزيد علي

المدينة فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء

ومنها أنه وجد بخزانة يزيد بن معاوية بعد موته فدفن بدمشق

عند باب الفراديس

ومنها أنه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل إلى عسقلان

فدفنه أميرها هناك وبقي بها حتى استولى عليها الأفرنج في الحروب

الصلبية فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف

درهم على أن ينقله إلى القاهرة حيث دفن بمشهد المشهور . قال

الشعرازي في طبقات الأولياء : أن الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج

هو وعسكره حفاة إلى الصالحية فتلقى الرأس الشريف ووضع في

كيس من الحرير الأخضر على كرمي من الأبنوس وفرش تحته

المسك والعنبر والطيب ودفن في المشهد الحسيني قريبا من خان

الخليل في القبر المعروف

وقال السائح الهروي في الاشارات الى أما كن الزيارات
« وبها - أي عسقلان - مشهد الحسين رضى الله عنه . كان رأسه
بها فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة القاهرة سنة تسع
وأربعين وخمسمائة »

وفي رحلة ابن بطوطة أنه سافر الى عسقلان « وبه المشهد
الشهير حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام قبل أن ينقل
الى القاهرة ... »

وذكر سبط بن الجوزي فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن
الرأس بمسجد الرقة على الفرات ، وأنه لما جرى به بين يدي يزيد
ابن معاوية قال : لابعثنه الى آل أبي معيط عن رأس عثمان ،
وكانوا بالرقة فدفنوه في بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد
الجامع ، وهو الى جانب سورده هناك

فالأماكن التي ذكرت بهذا العدد ستة في ست مدن هي
المدينة و كربلاء والرقة ودمشق وعسقلان والقاهرة . وهي تدخل

في بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية ،
وتكاد تشمل على مداخل العالم الاسلامي كله من وراء تلك
الاقطار . فان لم تكن هي الأماكن التي دفن بها رأس الحسين
فهي الأماكن التي تحيا بها ذكراه لامراء

والتاريخ اختلافات كثيرة نسميها بالاختلافات اللفظية أو
العرضية . لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها
الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فإما كان الموضع
الذي دفن به ذلك الرأس الشريف فهو في كل موضع أهل للتعظيم
والتشريف . وإنما أصبح الحسين - بكرامة الشهادة وكرامة البطولة
وكرامة الأسرة النبوية - معنى يحضره الرجل في صدره وهو قريب
أو بعيد من قبره . وإن هذا المعنى لفي القاهرة وفي عسقلان وفي
دمشق وفي الرقة وفي كربلاء وفي المدينة وفي غير تلك الأماكن سواء
ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين
فاجعة كربلاء ولقاء يزيد

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤس والنساء الى

الكوفة فأمر ابن زياد أن يطاف بها في أحياء الكوفة ثم ترسل
الى يزيد

وكانت فعلة يدارونها بالتوقع فيها على سنة المأخوذ الذي
لا يملك مداراة ما فعل . فبات خولي بن يزيد ليلته بالرأس في بيته
وهو يمني نفسه بغنى الدهر كما قال . فاقسمت امرأة له حضرمية
« لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله »

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب
رسول الله فرآه ينكت ثنايا الرأس حين وضع أمامه في أتجانه .
فصاح به مغضبا : أرفع قضيبك عن هاتين الثنيتين . فوالذي
لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين
يقبلهما ، وبكى .

فهزىء به ابن زياد وقال له : لولا أنك شيخ قد خرفت
وذهب عقلك لضربت عنقك . فخرج زيد وهو ينادى في الناس
غير حافل بشيء : انتم معشر العرب العبيد بعد اليوم . قتلتم ابن
فاطمة وأثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم

وأدخلت السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها وعليها أرذل
ثيابها ومعها عيال الحسين وإماؤها ، فجلست ناحية لا تتكلم ولا
تنظر إلى ما أمامها . فسأل ابن زياد : من هذه التي انحازت ناحية
ومعها نساؤها ؟ فلم تجبه . فأعاد سؤاله ثلاثاً وهي لا تجيبه ، ثم
أجابت عنها إحدى الاماء : هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم

فاجترأ ابن زياد قائلاً : الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأبطل
أحدوشتكم . .

وقد كانت زينب رضي الله عنها حقاً جديرة بنسبها الشريف
في تلك الرحلة الفاجعة التي تهد عزائم الرجال : كانت كأشجع وأرفع
ما تكون حفيدة محمد وبنت علي وأخت الحسين . وكتب لها أن
تحتفظ بشجاعتها وتضحيتها بقيمة العقب الحسيني من الذكور ،
ولولاها لا تقرض من يوم كربلاء

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة : الحمد لله الذي أكرمنا
بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا . إنما يفضح الفاسق ويكذب

الفاجر وهو غيرنا والحمد لله .

فقال ابن زياد : قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة .

فغلبها الحزن والغیظ من هذا التشفى الذى لا ناصر لها منه ، وقالت :

لقد قتلت كهلى وأبدت أهلى ، وقطعت فرعى واجتثت أصلی ،

فان يشفك هذا فقد اشتفيت

فتها تف ابن زياد ساخراً وقال : هذه سبجاعة . لعمرى لقد

كان أبوها سبجاعاً شاعراً

فقالت زينب : إن لى عن السبجاعة لشغلا . ما للمرأة والسبجاعة؟

ثم نظر بن زياد إلى غلام علیل هزبل مع السيدة زينب فسأله :
من أنت ؟

قال على بن الحسين

قال : أولم يقتل الله على بن الحسين

قال : كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله

فقال على : « الله يتوفى الأنفس حين موتها وما كان لنفس

أن تموت إلا بأذن الله »

فأخذت زيادا عزة الاثم وانتهره قائلاً : وبك جرأة لجوابي !

وصاح الخبيث الاثم بجنده : اذهبوا به فاضربوا عنقه

فجاشت بعمة الغلام قوة لا يردّها سلطان ولا يرهبها سلاح ...

لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتنقت الغلام

اعتناق من اعترزم ألا يفارقه إلا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لئن

قتلته لتقتلني معه . فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجباً

« يا للرحم . إني لأظنها ودت أني قتلتها معه »

ثم قال : « دعوه لما به » . . . كانه حسب ان العلة قاضية عليه

وعلى هذا هو زين العابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما

السلام ، وكان كما قال ابن سعد في الطبقات « ثقة كثير الحديث

عالياً رفيعاً ورعاً » وكما قال يحيى بن سعيد : « افضل هاشمي

رأيت في المدينة »

ولولا اسمائة عمته كما ترى لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية

كلمة على شفتي ابن زياد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين في

الكوفة وارباضها انقذه ورؤس أصحابه الى دمشق مرفوعة على
الرماح . ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب ، وفي الركب على
زين العابدين مغلول إلى عنقه يقوده شمر بن ذى الجوشن ومحضر
بن ثعلبة ، فتلاحق الركبان في الطريق ودخلا الشام معا إلى يزيد
وتكرر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد ...
ولانستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن أنه قد وقع في التاريخ خلط
بين المنظرين ، لأن المناسبة في هذا المقام تستوحى ضربا واحداً من
التعقيب وضربا واحداً من الحوار

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة في كربلاء حين بلغتهم
وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لها^م بجنب الطف أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
ميمية أمسى نسلها عدد الحصى وبنت رسول الله ليست بذى نسل
فأسكته يزيد . وقال وهو يشير إلى الرأس وينكت ثناياه بقضيب
في يده : أتدرون من أين أتى هذا ؟ انه قال : أبى على خير من أبيه
وأُمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده وأنا

خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما أبوه فقد تحتاج أبي وأبوه إلى الله
وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله
خير من أمي ، وأما جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى
لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ :
قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء .
وهو كلام ينسب مثله الى معاوية في رده على حجاج على في
الخلافة ، ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمة بنت الحسين —
وكانت جارية وضيئة . فقال ليزيد : هب لي هذه . فأرعدت
وأخذت بثياب عمتها . فكان لعمتها في الذود عنها موقف كوقفها
بقصر الكوفة ، ذيادة عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :
كذبت ولؤمت . ما ذلك لك ولا له .

فغضب يزيد وقال : كذبت ، إن ذلك لي . ولو شئت لفعلت
قالت : كلا والله . ما جعل الله لك ذلك . الا أن تخرج من
ملتنا وتدين بغير ديننا ، فاشتد غضب يزيد وصاح بها : أياي

تستقبانين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك . قالت : بدين
الله ودين أبي وأخي وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك
فلم يجد جوابا غير أن يقول : بل كذبت يا عدوة الله
فقلت : أنت أمير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك
فأطرق وسكت

وأدخل على ابن الحسين مغلولا فأمر يزيد بفك غلله وقال له :
ايه يا ابن الحسين ! أبوك قطع رحى وجهل حتى ونازعنى سلطانى ،
فصنع الله به ما رأيت . . . قال على :

ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب
من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا على
ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا
يزيد الآية : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ثم زوى
وجهه وترك خطابه

وكان لقاء نساء يزيد خيرا من لقائه . فواسين السيدة زينب
والسيدة فاطمة ومن معهما وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكر بلاء فيرددن

إليه من مثله وزيادة عليه

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاتته فلبأ إلى النعمان ابن
بشير وإلى الذي عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين وأمره أن
يسير آل الحسين إلى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم وقيل ، أنه ودع زين
العابدين وقال له : « لعن الله ابن مرجانة . أما والله لو أنى صاحب
أبيك ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيته إياها ولدفعت الختف عنه
بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى . ولكن الله قضى ما
رأيت يا بني ! كاتبني من المدينة وأنه إلى كل حاجة تكون لك »
والناس في تقدير التبعة التي تصيب يزيد من عمل ولاته
مشارب واهواء ، يرجع كل منهم إلى مصدر من مصادر الرواية
فينبئ عليه حكمه

فمنهم من يرى أنه برىء من التبعة كل البراءة ، ومنهم من
يرى أنه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها ، ومنهم من يقول انه قد
أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن
يمنعه لو شاء

والثابت الذي لا جدال فيه أن يزيد لم يعاقب أحداً من ولاته
كبر أو صغر على شيء مما اقترفوه في فاجعة كربلاء ، وأن سياسته
في دولته بعد ذلك كانت هي سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة
مما حدث في كربلاء . فاستباحة المدينة - دار النبي عليه السلام -
وتحكيم مسلم بن عقبة في رجالها ونساءها ليست بعمل رجل ينكر
سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث
على نقيض تدبيره وشعوره . وما زال يزيد وأخلافه يأمررون الناس
بلعن على والحسين وآلهما على المنابر في أرجاء الدولة الإسلامية ،
ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم .
ومن يجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين فقتله جائز أو واجب في
رأى لا عنيه

ومن أفرط في سوء الظن رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان
على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملي لهم في هذا الظن أن استئصال
ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثته الملك في بيته
وعقبه ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولاته ثم ينصل منها

ويلقى بتبعيتها عليهم ، ولو لم يكن ذلك لكان عجيباً أن توكل حياة
الحسين وأبنائه وآله الى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه..
فقد كان الزمن الذى انقضى منذ خروج الحسين من مكة إلى نزوله
بالطف على الفرات كافياً لبلوغ الخبر إلى يزيد ورجوع الرسل
بالتوجيه الضرورى فى هذا الموقف لو الى الكوفة وغيره من الولاة ،
فان لم يكن الأمر تدبيراً متفقاً عليه فهو المساءة التى تلى ذلك التدبير
فى السوء والشفاعة ، وهى مساءة التهاون الذى لا تستقيم على مثله
شئون دولة . وقد روى ابن شريح اليشكرى أن عبيد الله صارحه
بعد موت يزيد فقال : أما قتلى الحسين فانه أشار الى يزيد بقتله أو
قتلى فاخترت قتله ، وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحوه
ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب إلى الظن بإيعازه
وتدبيره . لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل ولائه على غاربهم
وهو لاه بصيده وعبثه ، وأنه ربما ارتاح فى سريره بادية الأمر
لى فعلة ابن زياد وأعوانه ، ولكنه ما علم أن رأى بوادى العواقب
إتوشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب حتى تيقظ من غفلته

بعد فوات الوقت فعمد إلى المحاسنة والاستدراك جهدا ما استطاع
ولم يكن في يقطته على هذا معتصما بالحكمة والسداد

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ولما تنقض ساعات على
ذبيوع الخبر في بيته قبل عاصمة ملكه ، فنعى ابن الحكم فعلة ابن
زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى
ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول اذا سئل : نبكى على بنى
أمية لا على الماضين من بنى هاشم

ومهما تكن غفلة يزيد فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل
أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن تهون جريرتها في
الحاضر القريب ولا في الآتي البعيد

والوقع أنها قد استتبعته بعدها جرائر شتى لا جريرة
واحدة ، وما تنقض جرائرها الى اليوم

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة في ثورة حنق جارف يقتلع
السدود ويخترق الحدود . لأنهم حملوا اليها خبر الحسين محمل التشهير
والشامة . وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين سمع أصوات البكاء

والصراخ من بيوت آل النبي فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب:
عجّت نساء بني زياد عجة * كهجيج نسوتنا غداة الأرنب
وكانت بنت عقيل بن أبي طالب تخرج في نساءها حاسرة وتنشد
ماذا تقولون إن قال النبي لكم * ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدى * منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم * أن تخلفوني بسوء في ذوى رحى
فكان الأمويون يجيئون بمثل تلك الشماتة ويقولون كما قال

عمرو بن سعيد : ناعية كناعية عثمان

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب
عثمان وهو يزود عنه ويجهد في سقيه وسقى آل بيته ، ولكنها
شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم في تليفق « المظاهرات
الحجازية » فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والاسى
الدفين وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين
واصطناع الولاء المقتصب ليزيد . فحملوا إلى دمشق وفداً من

أشرف المدينة لم يلبثوا أن عادوا إليها منكرين لحكم يزيد مجمعين
على خلع بيعته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة « انا قدمنا من عند
رجل ليس له دين . يشرب الخمر ويضرب بالطنابير ويعزف عنده
القيان ويلعب بالكلاب ويسمر عنده الخراب » . وقال رئيسهم
عبد الله بن حنظلة الأنصاري وهو ثقة عند القوم لصاحبه وزهده :
« لو لم أجد إلا بنى هؤلاء — وكان له ثمانية بنين — لجاهدت
بهم . وقد أعطاني وما قبلت عطاءه إلا لا تقوى به »

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة فأخرج
المدينون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم ،
وأعلنوا خلعهم للبيعة

وصدق ابن حنظلة النية فكان يقدم بنيه واحداً بعد واحد حتى
قتلوا جميعا وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته
وبدا في ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيراً ولا قليلا من عبرة
كربلاء . لأنه سلط على أهلها رجلا لا يقل في لؤمه وغله وسوء
دخلته وولعه بالشر والتعذيب وعشه بالتقتيل والتمثيل عن عبيد الله

ابن زياد ، وهو مسلم بن عقبة المري . فأمره أن يسوم الثأرين
البيعة بشرطه وأن يستبيع مدينتهم ثلاثة أيام إن لم يبادروا إلى
طاعته ، وكان شرطه الذي سامهم إياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء
الأيام الثلاثة التي انتظر فيها طاعتهم « إنهم يبايعون أمير المؤمنين
على أنهم خول له يحكم في دماهم واموالهم ما شاء »

وإذا كان شيء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح في
الظلم من استباحة الأرواح والأعراض في جوار قبر النبي عليه
السلام ، فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفسد على الغل
والضعيفة مثل مسلم بن عقبة .. كأنه يلقي على الناس وزر مرض النفس
ومرض الجسد ومرض الدم الذي أبلاه ولم يبيل ما في طويته من
رجس ومكيدة . « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزراً كما يجزر
القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام في الدم وقتل أبناء المهاجرين
والأنصار » وأوقع كما قال ابن كثير « من المفسد العظيمة في
المدينة النبوية ما لا يحمد ولا يوصف » ولم يكفه أن يسفك الدماء
ويهتك الأعراض حتى يلتذ بأثارة الآمال والخاوف في نفوس

صرعاه قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب
رسول الله هش له وتلقاه بما يطعمه ثم سأله : أعطشت يامعقل ؟
حوصوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين ..
فلما شربها قال له : رويت ؟ قال نعم . فتنمر له بعد ذلك وقال له :
أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا . وأمر بضرب عنقه

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الانصار والمهاجرين
والجوه الف وسبعماية ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى
النساء والصبيان

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر
الحوادث من أمثاله : دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة
نفساء من نساء الانصار ومعها صبي لها . فقال : هل من مال ؟
قالت : لا .. والله ما تركوا لنا شيئا . قال : والله لنخرجن الى
شيئا أو لأقتلنك وصبيك هذا . فقالت له : ويحك ! أنه ولد ابن
أبي كبشة الانصاري صاحب رسول الله . فأخذ برجل الصبي والثدي
في فمه فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التي قتل
فيها أولئك الألوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات
وقد مات هذا السفاح وهو في طريقه الى مكة يهيم بأن يعيد بها
مابداً بالمدينة ، فدفن في الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل
المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى
نجه ونجمت بالكوفة جريرة العدل التي حاقت بكل من مد يدا
الى الحسين وذويه

فسلط الله على قاتلي الحسين كفوؤا لهم في النعمة والنكال . فقل
حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذي يعرفونه . وهو المختار بن
أبي عبيد الثقفي داعية التوابين من طلاب ثار الحسين . فأهاب
بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم في نصرته وأن يتعاهدوا
على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين
مذال القبر في العراق

فلم ينج عبيد الله بن زياد ولا عمر بن سعد ولا شمر بن ذى الجوشن
ولا الحصين بن نمير ولا خولى بن يزيد ولا أحد ممن أحصيت عليهم
ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى أو الأحياء
وبالغ فى النعمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين
وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله ، فقتل عبيد الله
وأحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن والقيت أشلاؤه للكلاب ،
ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلثات وألوف من جندهم وأتباعهم
مغرقين فى النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاعاة . فكان
بلاؤهم بالختار عدلا لارحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت
من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغت قسوة المختار

ولحقت الجريمة الثالثة بأعقاب الجريمة الثانية فى مدى سنوات
معدودات . فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره لبنى أمية الى أيام
عبد الملك بن مروان ، وكان أخرج الفريقين من سيق الى أخرج
العملين . وأخرج العملين ذاك الذى دُفع اليه — أو اندفع اليه —
الحجاج عامل عبد الملك . . فنصب المنجنيق على جبال مكة ورمى

الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى على ما تركه منها جنود يزيد
ابن معاوية ، فقد كان قائده الذي خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار
مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بني
أمية ، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه في دولة بني العباس
فعموا بنقمتهم الأحياء والموتى وهدموا الدور ونبشوا القبور ، وذكر
المنكوبون بالرحمة فتسكت المختار بن أبي عبيد ، وتجاوز الثار كل
مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين

لقد كانت ضربة كربلاء وضربة المدينة وضربة البيت الحرام
أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم
على المنكرين والمنازعين ، فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون
بشيء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاربين
حقبة حتى ذهبوا بها مضروبين إلى آخر الزمان

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء . فإذا بالدولة العريضة
تذهب في عمر رجل واحد مديد الأيام ، وإذا بالغالب في يوم
كربلاء أخسر من المغلوب إذا وضعت الأعمار المنزوعة في الكفتين

نَهْـنَـيَـةُ الْمُطَهَّرَاتِ

غبن أن يفوت الإنسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه
وأثقل منه في الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالأساءة
ويجزى المسيء بالاحسان

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ،
ووجهة للشريعة والدين

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التي تلتقي فيها كل هذه
المقاصد الرفيعة ، فإذا بطل الجزاء الحق ففي بطلانه الأخلاق كل
الأخلاق بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان. وفيه
حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الانساني بالتشويه والخسار
والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الانساني
كرامة لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه . كالنظر الصحيح
نحسبه هو غرضا للبصر يرتاح إلى تحقيقه ويحزن لفواته وإن لم يكن
وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة
والأخلاق به داء كريه

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنة التي تزرى

بكرامة العقل الأنسانى كاستهدافه لها وهو فى مصطدم التضحية
والمنافع ، أو فى الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة
ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى ان الرجل قد أضاع
كل شىء وانهزم وهو فى الحقيقة غائم نلاف
ويبدو لنا أنه قد ربح كل شىء وانتصر وهو فى الحقيقة خاسر
مجهوم .

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث
فيه ، لأنه المدخل الذى يقضى إلى الجزاء الحق والنتيجة الحققة ،
ويتمهى بكل عامل أفلح أو أخفق فى ظاهر الأمر إلى نهاية مظافه
وغاية مسعاه فى الأمد الطويل

وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن على ويزيد بن
معاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص الجزاء الحق
فى أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح فى أخبار
الأمم شرقا وغربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها ،
وفى تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف

معارض النصر والهزيمة

وحي
الح
جو
ولا
فاه
أخ
وما
و

فيزيد في يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذي لا يشوبه خذلان

وحسين في ذلك اليوم هو الخذول الذي لم يطمح خاذله من

وراء الظفر به الى مزيد

ثم تنقلب الآية ايما انقلاب

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارقان بين كفة الرجحان

وكفة الخسران

وهذا الذي قصدنا الى تبينه وجلائه بتسطير هذه الفصول

وما من عبرة أولى من هذه العبرة بالتبيين والجلاء لدارس

التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد في أطوار هذا الوجود

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل

ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان والآرب

الأرضية . فان لهذا الصراع لوانا متعدد ولا تتكرر على هذا المثال ،

وان له لعناصر لم تجتمع كلها في طرفي الخصومة بين الرجلين ،

وأشواط لم تتخذ الطريق الذي اتخذته هذه الخصومة في البداية أو النهاية

ولكننا فكتفى بحقيقة واحدة توجب الاعتبار بهذه الخصومة
وحدها وتفردا بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهي أن مسألة
الحسين ويزيد قد كانت صراعا بين خلقين خالدين ، وقد كانت
جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاوزا أحقابا غابرات
ولا يزالان يتجاوزان فيما يلي من الأحقاب ، وقد أسفرا عن نتيجة
فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة
أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق
العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه

فاذا سعى أحد بالحيلة خدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك
مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطف
الخالص والثناء الرفيع

واذا خسر أحد حياته في سبيل إيمانه فليكن تلك خسارته
وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة في السمعة والعطف والثناء
فلو جاز هذا لكان العطف الانساني أزيف ما عرفنا في هدم

الدنيا من الزيوف . لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من
زيف في العروض الأخرى إلا وهو ينطلي يوما وينكشف
بقية الأيام .

وإذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من
غم النفع والمحبة والثناء فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان
وإذا كانت خسارة المرء في سبيل ايمانه تجمع عليه كل خسارة
فالأحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه في طلبه
فكفى الواصل ما وصل اليه

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته
الانسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة
والتيضحية ، ويخسرون

وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد
فاذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء فيزيد لم
يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء ، ولكنه ورث المنافع التي يشتري بها
الأيدي والسيوف ، فجال بها جولة رابحة في كفاح الضمائر والقلوب

فينبغي ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح فينبغي أن يقف
به الربح عند ذاك ، وينبغي للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا
يحسبوا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال والسلطان
ثم أخذوا أجورهم فينبغي أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور ،
وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقين
أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين فقد
أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هوا علاوة مضمونة
على صفقة كل مأجور

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول
ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن
يبدل ماله من ثناء

وليس في تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة
صحيحة أو مدعاة تقيمه بحيث اراده المأجورون من العذر الممهد
والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح في الموازنة وبين الحسين

كل أخطائه ثابتة عليه ، ومنها بل كلها ، خطأ في حق نفسه
ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة
مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين وكان يخدم نفسه ودولته
لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه

و كانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسلط
أشغال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله

و كانت له ندحة عن السمعة التي لصقت به ولم تلصق به افتراء
ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم
يلصقوا مثاليها بأبيه

ومن كان حقه في النعمة التي نعم بها مغتصباً ينترعه عنوة لا يكن
حقه في الفضل والكرامة جزافاً لا حسيب عليه

وتسديد العطف الأنساني هنا فرض من أقدم الفروض على
الناظرين في سير الغابرين ، لأن العطف الأنساني هو كل ما يملك
التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخلود . وإننا

لندع الخطأ في سياسة النفعيين وننظر إليهم كأنهم مصيبون في
السياسة ، بصراء بمواقع التدبير

فعلى هذه الصفة - لو تمت لهم - لا يحق لخادم زمانه أن ينازع
الشهداء في ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التي تتخطى
حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد

فإن حرمان الشهداء حقهم في عطف الأسلاف والأخلاف خطأ
في الشعور وخطأ كذلك في التفكير

والناس خاسرون إذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى
أمرهم أنهم قساة أو جاحدون . لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتي
وتكثر حيناً وتندر في غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فإن
سميته فضيلة فهو من الفضائل التي لن تفارق الأحياء أجمعين ، من
ناطقة وعجماء

على أن الطبائع الأدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف
عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة . وإنما تنحرف عن
سواء هذه السنة لعوارض ظارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها .
وأكثر ما تأتي هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ،
أو من نكسة في الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوى وسجية سمحة

محبة إلى الناس عامة ، أو من الأفراط في حب الدعة حتى يجفل
المرء من الشهادة استهوا لا لتكاليها واستعظاما للقدوة بها ، فيتهم
الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجن
والضعفة ويستحق المذمة واللوم في رأى ضميره . وإن لم يتهمهم
بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور
وجنح إلى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون
ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون اليه

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة
أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الفاجية ،
ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة التاريخ الصحيح لأنها تعرضهم
للخطأ في الحكم والتفكير كما تعرضهم للخطأ في العطف والشعور
ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا - في العربية - مؤرخ
يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر إلى الاستشهاد
في كراهة الظلم ودرء المنكرات ، وهو الأستاذ محمد الخضرى صاحب
تاريخ الأمم الإسلامية رحمه الله

ففي تعقيبه على ثورة المدينة التي قدمنا الإشارة إليها يقول :
« ان الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر

به أهل المدينة في قيامهم وخدمهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد
عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه . ولا ندرى ما
الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟ أ يكونون مستقلين عن بقية
الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة
على الدخول في أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية
الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية ؟
أنهم فتقوا فتقاً وارتكبوا جرماً فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهك
حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في
معاملاتهم بهذه المعاملة . فانه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار »
ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة
كلها أن لديه أعذارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة . لأنه
يفهم كيف يغضب المرء لما في حوزته ولا يفهم كيف تضيق به
كراهة الظلم وغيره العقيدة عن الاحتمال

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث
التاريخ ، لأنه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر
لا محالة واستبعادها حيث هي بعيدة عن التقدير
فلم يحدث قط في مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن

شعر الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا في الأمر كما
أرادهم أن يفكروا

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه أنه لم

يحدث من قبل في حركات التاريخ

فهذه الحركات التي تواجه الدول المكروهة لا تنتظر - ولا

يمكن أن تنتظر - حتى تربي قوتها وعدتها على ما في أيدي الدولة

التي تكرهها من قوة وعدة

والكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يهابه

الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقتناع وضيق

الذرع بالأمور ، ثم ينفاهم ما ينفاهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف

الظلم عن كان في غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج إلى

التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحق إلى تخبط

أغلظ منه وأحق . فلا هم يقفون في امتعاضهم وتذمرهم ولا هو

يقف في بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه

وهنه والقضاء عليه

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذي يعالج النفوس الأدمية

ما هو من طبيعتها وما هو خليف أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج

على أنها مسألة جمع وطرح في دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق
وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذي
لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

وصل الأمر في عهد يزيد إلى حد لا يعالج بغير الاستشهاد ومنعاه
وهذا هو الاستشهاد ومنعاه . وهو - بالبداية التي لا تحتاج إلى
مقابلة طويلة - منحنى غير منحنى الحساب والجمع والطرح في دفاتر التجار
ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضي إلى نهاية مطافها ثم
يتناول دفتر التجار كما يشاء ، فانه لو اجدته في نهاية المطاف أن دفتر
التجار لن يكتب الربح آخر إلا في صفحة الشهداء

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ولكنهم
يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفارقة فتظفر في نهاية مطافها
بكل شيء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون في أول
الشوط ثم ينهزمون في وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا
حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فاذا هم بكل
ميزان خاسرون

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد

ولكن يزيد ذهب إلى سبيله وعوقب أنصاره في الحياة
والخطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خالفائه في
عمر رجل واحد لم يجاوز الستين

وانهزم الحسين في يوم كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده
ولكنه ترك الدعوة التي قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل
بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء
بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس في حلة من النور تخشع
لها الأبصار .

وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الإنسان غير
مستثنى منهم عربي ولا أعجمي وقديم ولا حديث

فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة
الحسين عدة وقدرة وذكره . وحسبه أنه وحده في تاريخ هذه الدنيا
الشهيد بن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين

وأيسر شيء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك
ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه

فهؤلاء وأهمون ضالون مغرقون في الوهم والضلال
لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك

شهيدا قديسا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة
وانما هو طلب وطلب ، وانما هي غاية وغاية ، وانما المعول
في هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب
فمن طلب الملك بكل تمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى
فيه بين الغضب والحق وبين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية
ومفسدتها - ففي سبيل الدنيا يعمل لا في سبيل الشهادة
ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقا ولم
يطلبه لأنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه
لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الايمان ولا يعتز بنصر
الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعا للظلمة وجلبا للمصلحة كما وضحت
له بنور إيمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذي يخدم نفسه بعمله ،
ولكنه الشهيد الذي يلبي داعي المروءة والارحية ويطيع وحى
الايمان والعقيدة ، ويضرب للناس مثلا يتجاوز حياة الفرد الواحد
وحياة الاجيال الكثيرة
ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق في أمثال هذا
الصراع بين الخلقين أو بين المازاجين التاريخيين :
وهي أن الشهادة خصم ضعيف مغلوب في اليوم والأسبوع والعام

ولكنها أقوى المصوم الغالبين في الجيل والأجيال ومدى الأيام
وهي حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت إليها بعين الأرض أو بعين
السماء . على أن تنظر إليها في نهاية المطاف

ونهاية المطاف هي التي يدخلها « نوع الإنسان » في حسابه
ويوشج عليها وشائج عطفه و إعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث
في اليوم ، ولا ينظر إلى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل
للدوام وينظر إلى الخلود

فِي عَسَائِرِ الْجَمْعِ

إذا لحقت السيرة بعالم المثال الذى يتطلع اليه خيال الشعراء
وتتغنى به قرائح أهل الفن فقد تنزهت عن ربة الجسد وأصبحت
صورة من الصور المثلى فى عالم الجمال

ومن آيات الجمال أنه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة.
فاذا تعلقت القريحة بالجمال فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب
والصفقات، فتعرض عن النعمة وهى بين يديها وتقبل على الألم وهى
ناظرة اليه . وتلزمها سجية العشق الآخذ بالاعنة ، فتتقاد له ولا
تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل : لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا
يبالى ما يلقاه فى سبيله

وتمثلت سجية عاشق الجمال فى كل شعر نظمه شعراء الحسين
وذويه تعظيما لهم وثناء عليهم . فلم يتجهوا اليهم ممدوحين وانما
اتجهوا اليهم صوراً مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبته ،
ويستعذبون من أجْلِها ما يصيبهم من ملام وإيلام

وفى معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :
طربت وما شوقا الى البيض أطرب * ولا لعباً منى ، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسم منزل * ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه * أصاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشية * أمر سليم القرن أم مرأعضب (١)
ولكن إلى أهل الفضائل والنهي * وخير بني الحواء، والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم * إلى الله فيما نالني أتقرب
بني هاشم، رهط النبي، فأنني * بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خففت لهم مني جناحي مودة * إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

.

يشيرون بالأيدي إلى وقولهم * ألا خاب هذا، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتني بحبكم * وطائفة قالوا: مسيء ومذنب
فما ساءني تكفير هاتيك منهم * ولا عيب هاتيك التي هي أعيب
يعيبونني من خبهم وضلالهم * على حبكم، بل يسخرون وأعجب
وقالوا: ترابي (٢) هواه ورأيه * بذلك أدعى فيهم وألقب
على ذاك إجرياي، فيكم ضربيتي * ولو جمعوا طراً على وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم * وينصب لي في الآبعدين فأنصب
وقد مر بنا حديث زين العابدين رضي الله عنه وهو غلام عليل قد
أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عميد الله بن زياد لأنه استكبر
« أن تكون به جرأة على جوابه »

(١) السانح الطير الذي يمر من اليسار إلى اليمين وعكسه البارح، والاعضب المكسور القرن

(٣) من كنى على بن أبي طالب «أبو تراب» وترابي نسبة إليه

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث
انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله
وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس
فلم يخلص الى الحجر الأسود لتزاحم الحجاج عليه . وانه لجالس على
كرسيه ينتظر انفضاض الناس إذا بزى العابدين يقبل الى الحجر
الأسود في وقاره وهيئته فيتنحى له الحجاج ويخفوا به وهو يستلم
الحجر مطمئنا غير معجل ، ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه
بالتجلة والدعاء

وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التي لم يرها لمولاه
فيسأل : من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة !

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول إلى
مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : لا أعرفه . ويقتضب الجواب
وهذا الذي تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليمتول
بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله في كلمتين عابرتين
وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقى النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله * بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره . * العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رآته قریش قال قائلها * الى مكارم هذا ينتهى الكرم
من معشر حبههم دين وبغضهم * كفر ، وقربهم منجى ومعتصم
وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة - خالد بن عبد الله -
فلعننه وهو قادر على قتله لأنه يلعن علياً وحسيناً فى خطبه ، وأنشد
لعن الله من يسب علياً * وحسيناً من سوقه وإمام
أيسب المطهرون جدوداً * والكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأ * من آل الرسول عند المقام
طبت بيتا وطاب أهلك أهلاً * أهل بيت النبي والاسلام
رحمة الله والسلام عليه * كلما قام قائم بسلام
وتنقضى السفون وتتسامع العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه
أحد ولم ينزه أحداً من المجزئين له أو المقترين عليه عن استحقاق
الهجاء . فكان ينشد الأبيات المقذعة ويسأل عن صاحبها فيقول :
لم يستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون
هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعى الذى يهز أوتار النفوس
بأمثال هذه الأبيات فى آل البيت

مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى * وبالركن والتعريف والحجرات
ديار على والحسين وجعفر * وحمزة والسجاد ذى الثغفات (١)
ديار عفاها كل جون مبادر * ولم تعف للأيام والسنويات
إلى أن يقول :

ملا مك فى أهل النبي فأنهم * أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرة * وزد حبهم يارب فى حسناتى
أحب قصى الرحم من أجل حبهم * وأهجر فيهم أسرتى وبناتى
لقد حفت الأيام حولى بشرها * وانى لأرجو الأمن بعد وفاتى
ألم تر انى من ثلاثين حجة * أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيهم فى غيرهم متقسما * وأيديهم من فيهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم * وآل زياد حفل القصرات (٢)
بنات زياد فى القصور مصونة * وآل رسول الله فى الفلوات
إذا وتروا مدرا الى أهل وترهم * اكفأ عن الأوتار منقبضات
ووهب أبو على موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة

(١) كان على بن الحسين يلقب بذى الثغفات لأن جبهته أصبحت كمشقة البعير —

٢ ربه — من كثرة السجود

(٢) القصرة الرقبة وحفل القصرات أى غلاظ الرقاب من السمن

باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه ، فبذل له أهل « قم » ثلاثين ألف
درهم ليبيعهم الخلعة ففطن بها . ثم ترصدوا له في الطريق ليأخذوها
منه عنوة تبركا وذكرى . فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة . واسترضوه
فلم يرض إلا أن يعطوه كما من أكرمها ليدفن معه في كفنه . وتقسموا
الخلعة بينهم فخورين بها غير مباينين ما بذلوه في ثمنها
وانقضت فترة لم تطل ، وتسامعت العربية بشاعر آخر أخل
من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح
ذلك هو أبو العباس علي ابن الرومي الذي نسي ممدوحيه من
آل طاهر وبني العباس ليندكر حق حفيد الحسين يحيى بن عمر الشهيد ،
ولو كلفه ذكره القتل والحرامان
وفي بعض ما ساقه من النذر لأمرأ زمانه مهلكة له قلما يقلت
منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية
غُررتم لئن صدقتم ان حالة * تدوم لكم ، والدهر لوان أخرج
لعل لهم في منظوى الغيب ثائراً * سيسموا لكم والصباح في الليل موالج
بمجر تضيق الأرض من زفراته * له زجل ينفي الوحوش وهزمج (١)
يود الذى لا قوه أن سلاحه * هنالك خلخال عليه ودملج
فيدرك ثار الله أنصار دينه * والله أوس آخرون وخزرج

(١) الهزيمة اختلاط الصوت والمجر الجيش الكبير

ويقضى امام الحق فيكم قضاءه * مبينا ، وما كل الحوامل تخرج
وكل أولئك شاعر ينسى التقوى في مواطىء شتى من عمله
وقوله ولا ينساها في حق الشهداء من آل الحسين وصحبه ، لأنه يحس
الجمال احساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلثية » اهتزاز الأريحية التي
يحلم بها رواد الخيال . فهم هنا بمرآة من قيود العيش ووساوس
الحاجة واعباء النوازع الأرضية ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغي
أن يقال . فيجري على لسانهم كأنهم مسوقون اليه

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالغطاء
الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل في نوال ،
وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان
سوء الظن بالناس أجمعين ، وكان يقول ما بداله في الدنيا والدين ،
ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهم في السابقين أو اللاحقين
ذلك ابو العلاء المعرى حيث قال في الفجر والشفق :

وعلى الدهر من دمء الشهيد * ين على ونجته شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا * ن وفي أولياته شفقان
تبتا في قيصه ليجىء الحش * ر مستعديا الى الرحمن

وان وحي الشعر من سرأثر النفوس لأصدق حكما من لسان التاريخ
إذا اختلف الحكماء

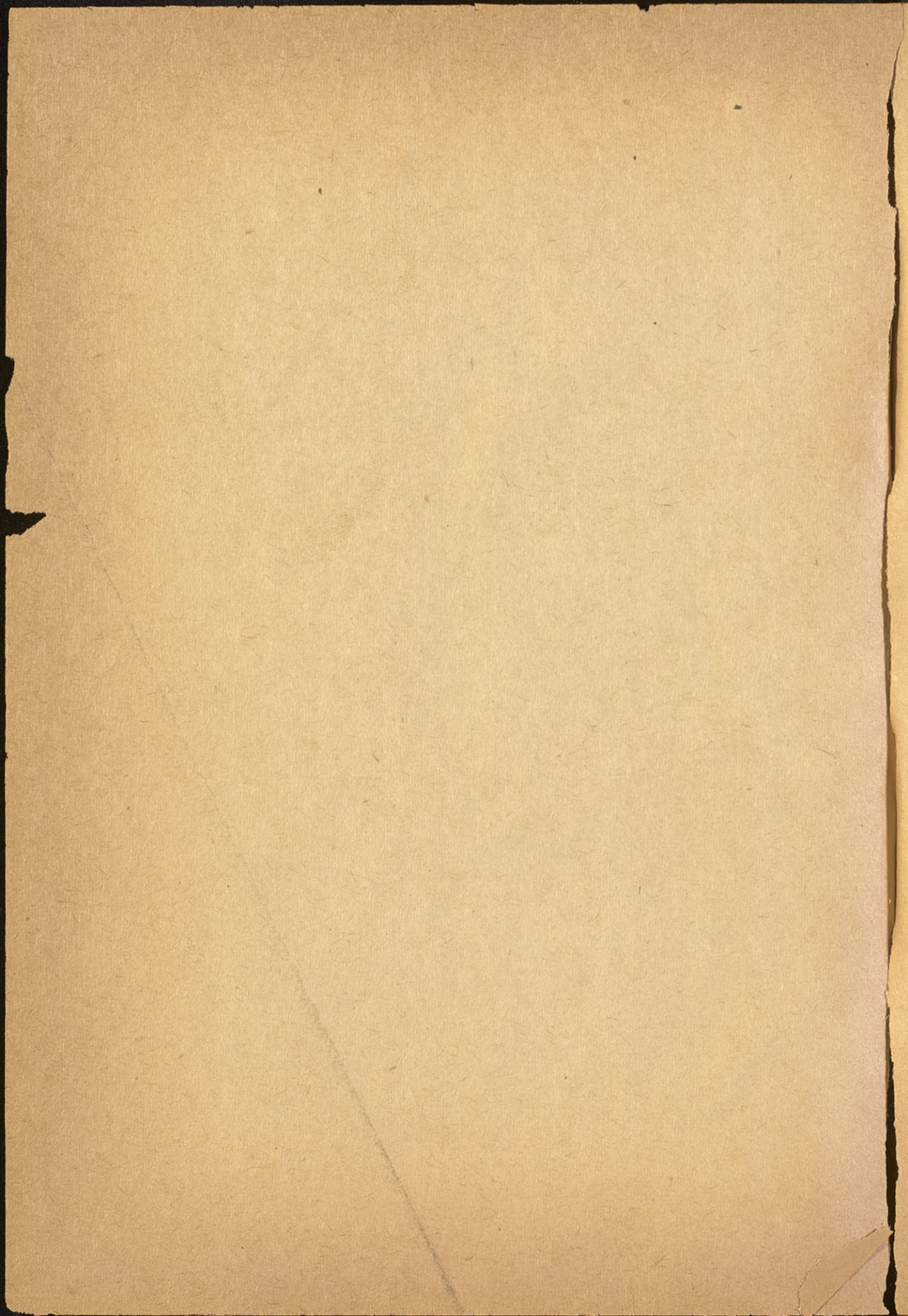
ولكنهما قد توافيا معا على مقال واحد . فجلوا لنا من سيرة
الحسين رضي الله عنه صورة من صور الجمال في عالم المثال ، وكذلك
يعيش ما عاش في اخلاص الناس

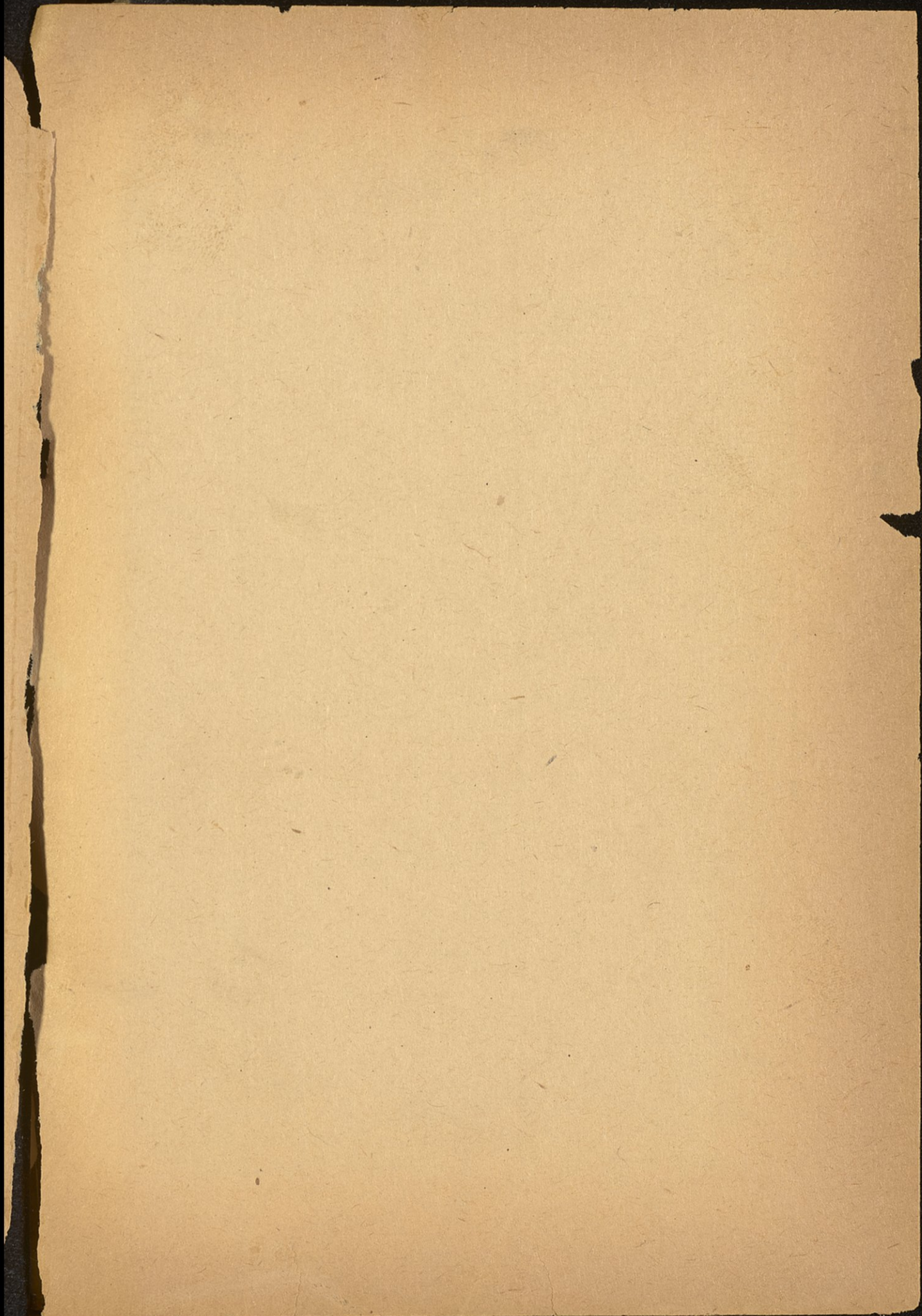
فهرست

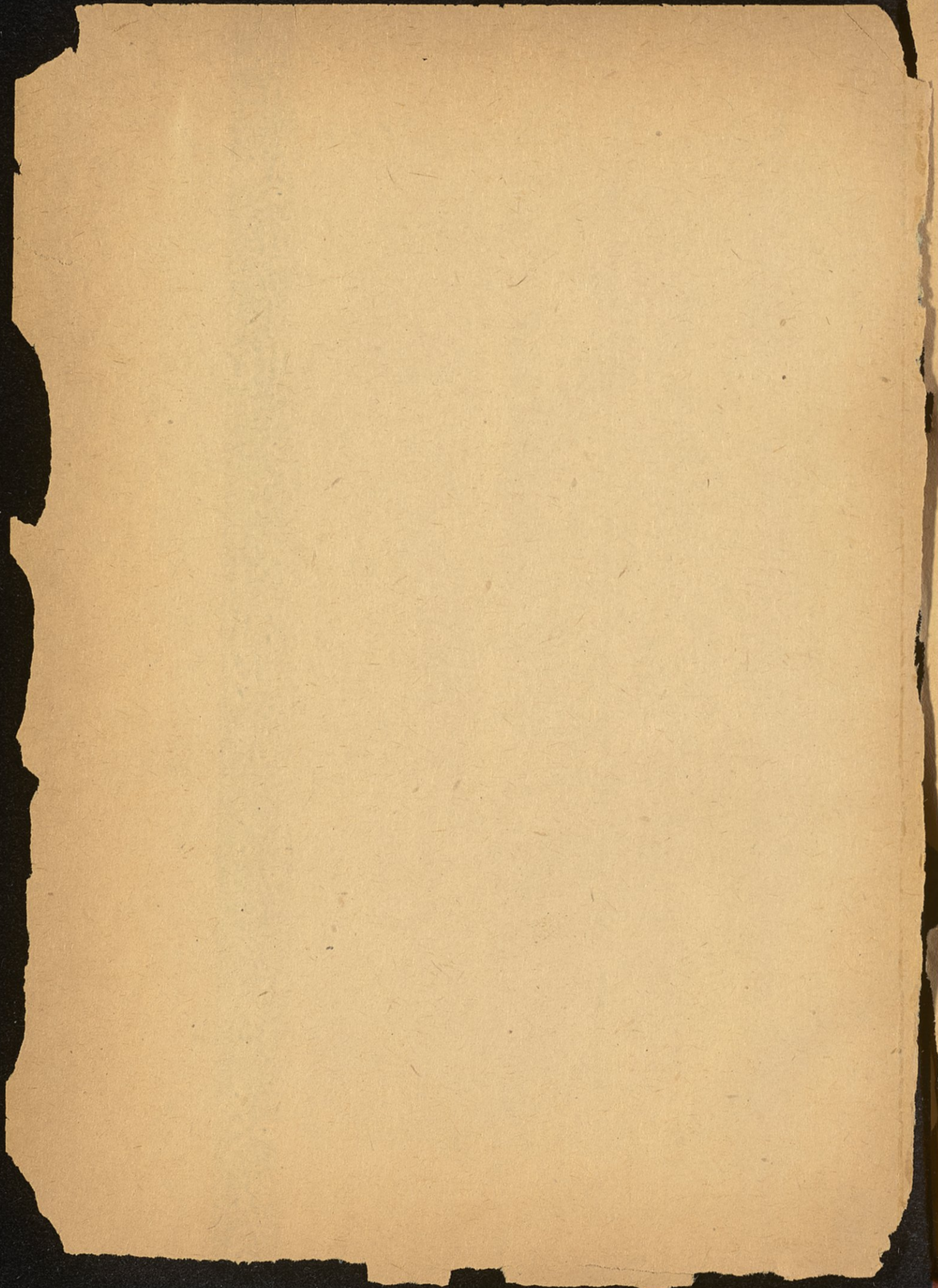
صفحة	
٣	مزا جان تاريخيان
٢١	الخصومة
٤٢	الخصمان
٨٤	أعوان الفريقين
٩٦	خروج الحسين
١٢٢	هل أصاب ؟
١٥٢	كر بلاء
١٩٥	جريرة كربلاء
٢١٧	نهاية المطاف
٢٣٣	في عالم الجمال

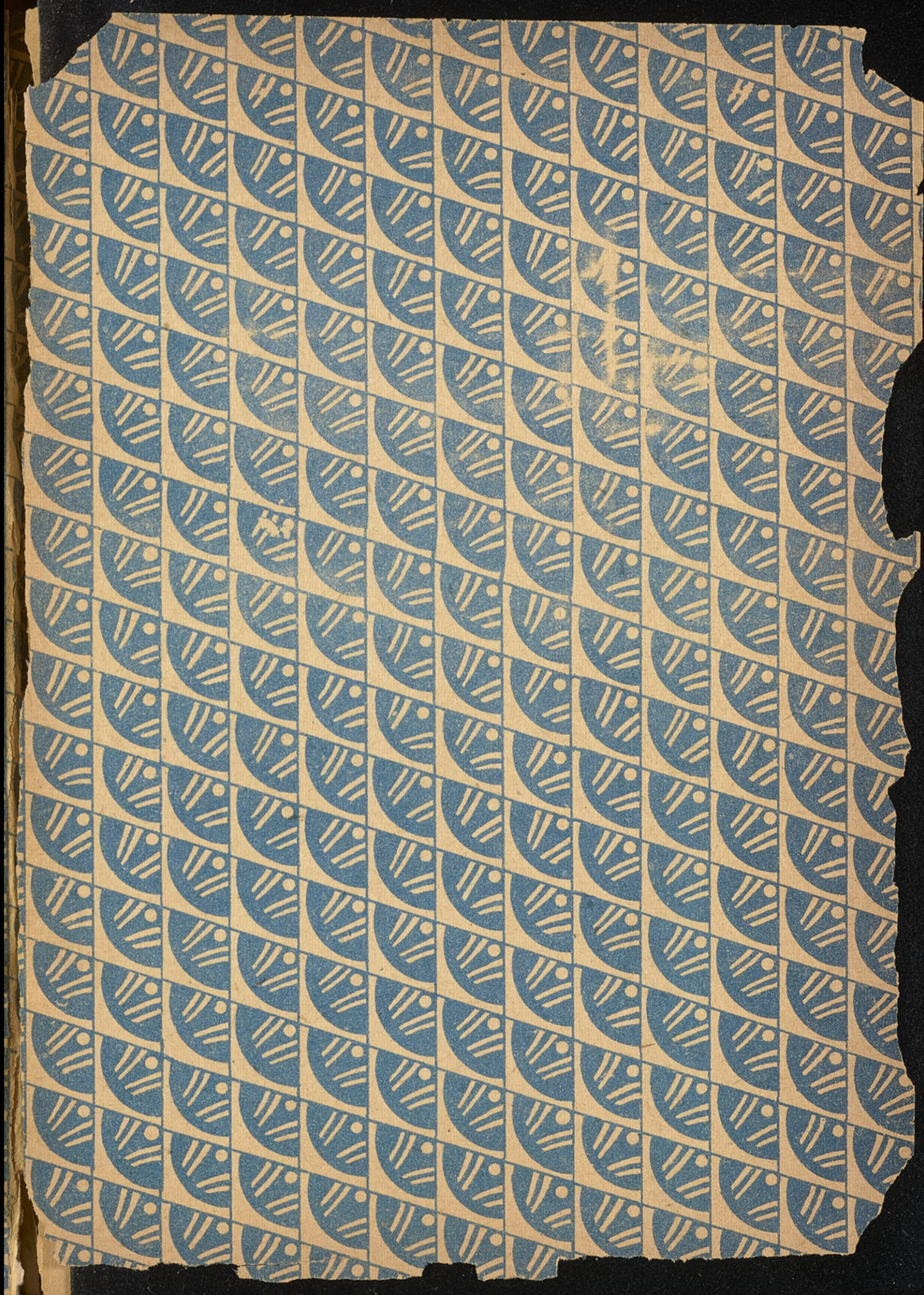
تصويب

وردت كلمة الشح في السطر الخامس صفحة ٩٣ وصوابها المسخ،
وكلمة يختلفان في السطر التاسع صفحة ١٢٥ والصواب لا يختلفان .
وكلمة أبي في السطر الثاني عشر صفحة ١٩٢ وصوابها ذي









AUG 27 1952

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758124

11120967

